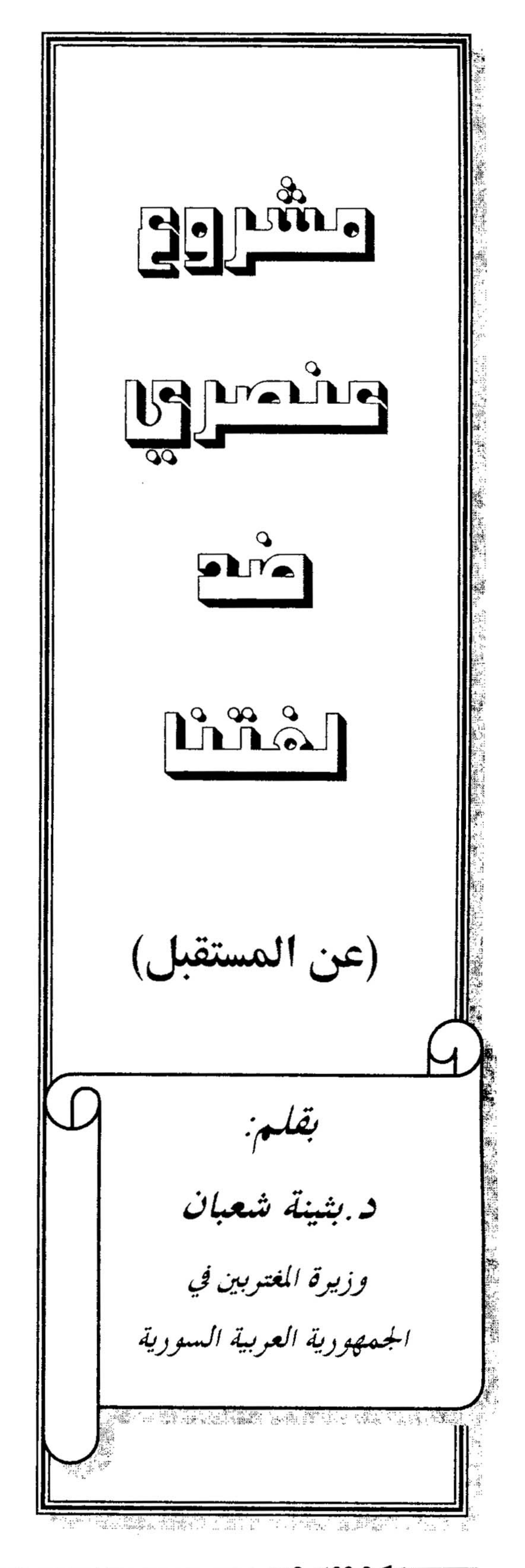


في جلسة فكرية ضمت نخبة من الحريصين على هوية الأمة ومستقبلها من أقطار عربية مختلفة في إحدى العواصم الأوروبية تطرقنا إلى المخاطر التي تهدد اللغة العربية، وهي الوعاء الذي يجمع بيننا جميعا ويتيح لنا إمكانية التواصل المعرفي والقومي الذي يشكل العصب الأساسي للانتماء. وفي اليوم التالي أرسل لي أحدهم ما وصله من الدراسة التي تهدف فيما تهدف إلى تغيير الأبجدية العربية واستبدالها بالحرف اللاتينية تحت مسمى (تحديث الثقافة العربية) واعتبار هذا المشروع جزءاً من خطة الإصلاح في المنطقة والتي تدخل ضمن إطار مشروع (الشرق الأوسط الكبير) حيث يدّعي معدو هذا المشروع "أنه وبعد أحداث الحادي عشر من أيلول تم إجراء أكثر من ٦٠٠ دراسة بين عامي ٢٠٠٢ و ٢٠٠٣ وخلصت هذه الدراسات إلى أن الغرب يواجه صعوبة كبرى في استيعاب حضارات وأديان اللغة العربية" ويقول معدو المشروع: "بعد أحداث الحادي عشر من أيلول لم يتمكن الغرب من التعرف على شعور الإرهابيين الحقيقي أو الدوافع الكامنة وراء ارتكابهم لهذه الأحداث. بينما يتقن العرب اللغات الإنكليزية والفرنسية ويتحدثونها كما يتحدثها الناطقون الأصليون بها".. ولذلك يستهدف المشروع اللغة العربية ويخطط لإلغاء المناهج القائمة حالياً التي تعتمد على دراسة قواعد اللغة والصور الجمالية وإبداعاتها "في إطار حركات الإصلاح والسعي نحو تطبيق الحرية والديموقراطية" وتضيف الدراسة: "إن الهدف من هذا المشروع ليس تحرير اللغة العربية فقط من أشكالها التقليدية التي ظلت قائمة كما هي منذ آلاف السنين، ولكن تحرير العقول العربية والإسلامية ويستهدف القضاء أساساً على الموروثات السلبية مثل الانتقام والعنف والإرهاب".

ويحدد المشروع خطوات ملموسة للتخلص من قواعد اللغة العربية ومن ثم فصل

اللغة عن ماضيها وتراثها وبالأخص عن القرآن الكريم لنزع صفة القدسية عنها ومن ثم تغيير المعاني وذلك "لإقناع الأجيال الشابة أنّ العصر الحديث يتطلب التخلص من التعقيدات اللغوية التي تفرضها لغتهم العربية" ويؤكد المشروع أنّ "الخطوة الأساسية في هذا التعديل تكمن في أن يوافق العرب على تغيير شكل الكتابة، ثم تبدأ الأشكال الحالية للغة العربية في الاندثار شيئاً فشيئاً".

ويشمل المشروع خطوات مدروسة شارك في وضعها علماء نفس ولغويون وسياسيون وقد حسبوا حساباً لأدق التفاصيل وردود الأفعال عليها. ويمكن تلخيص هذه الخطوات على الشكل التالي:

- الخطوة الأولى: التعبير عن النص العربي أو القرآني بفكرة جديدة تؤدي ذات المعنى.
- الخطوة الثانية: التعبير عن النص أو الآية بفكرة قريبة منها.
- الخطوة الثالثة: تغيير فكرة النص أو الآية من دون اصطدام مع الفكرة الأصلية.
- الخطوة الرابعة: تغيير الفكرة بما يؤدي إلى التشكيك في الفكرة الأصلية.
- الخطوة الخامسة: زيادة الألفاظ والعبارات في ذات الفكرة وزيادة مساحة التشكيك في الفكرة الأصلية.
- الخطوة السادسة: القبول والإقناع بتفسيرات جديدة لهذه الفكرة الأصلية بما يؤدي إلى محو معناها الذي كان قائماً لفترات طويلة في أذهان الناس.
- الخطوة السابعة: دراسة ردود الفعل حيال كل الخطوات السابقة ومجابهة المعترضين على التغيير البطيء.
- الخطوة الثامنة: تغيير الفكرة الأصلية وإحلال الجديدة محلها بشكل نهائي.

وسيتم تحديد طبيعة "التوجهات العدوانية أو المسالمة للعرب" من خلال دراسة مواقفهم من أشكال الكتابة الجديدة و "الشخص العدواني هو الذي يرفض أشكال الكتابة الجديدة أما الشخص السوي فهو الذي يعتمد على استخدام الأشكال الجديدة للكتابة". ويخطط واضعو المشروع لمحاصرة الرافضين له باتهامات مثل "متشددين" أو "متطرفين" أو "تقليديين" أو "متحجرين".. الخ.. ورأى عددا من علماء النفس الذين اشتركوا بوضع هذا المشروع العنصري أنّ تغيير أشكال الحروف العربية "سيقلل من حدة العداء والكراهية المتأصلة لدى المواطنين العرب ضد أميركا والغرب بصفة عامة".

وهناك مقترح يتضمنه المشروع ويقضي بإلغاء لفظة "اليهود" على سبيل المثال في اللغة العربية لتحل محلها في الأشكال الجديدة لفظة "الساميون" لأن لفظة "اليهود ارتبطت دائماً لدى العرب بأشياء بغيضة بينما لفظ "الساميون" مقبول جداً لدى العرب وهو يدل على السمو والارتفاع بالأخلاق.

ويتهم واضعوا لمشروع الحضارة العربية بأنها "تتناقض مع مبادئ الماديات الحديثة واللغة الدولية في بناء التواصل الفكري وأن هذه الحضارة بطبيعتها متعصبة وأن هذا التعصب يقود إلى الاصطدام المباشر مع الحضارات الأخرى وأنه قد حان الوقت للقضاء على ذلك التعصب".

هل أصبح واضحاً مما تقدم أن المطلوب هو القضاء على الحضارة العربية عبر تحطيم اللغة العربية وهي أقدم لغة حية لا يزال يتكلم بها ويكتبها مئات الملايين من العرب والمسلمين والتي تعتبر حاضنة الحضارة العربية بمكوناتها التاريخية والفكرية وضمانتها الأساسية؟ وهل غدا الأمر واضحاً أن حملة العداء والكراهية التي يواجهها أطفال فلسطين ونساء العراق والمغتربون العرب في أوروبا وأميركا هي جزء من حملة واسعة الانتشار لانبعاث معاداة السامية الغربية بشكلها الجديد الموجه ضد العرب – مسلمين ومسيحيين – ضد حضارتهم ولغتهم وحقوقهم وأرضهم ومياههم؟! ولذلك فإن كل الصرخات

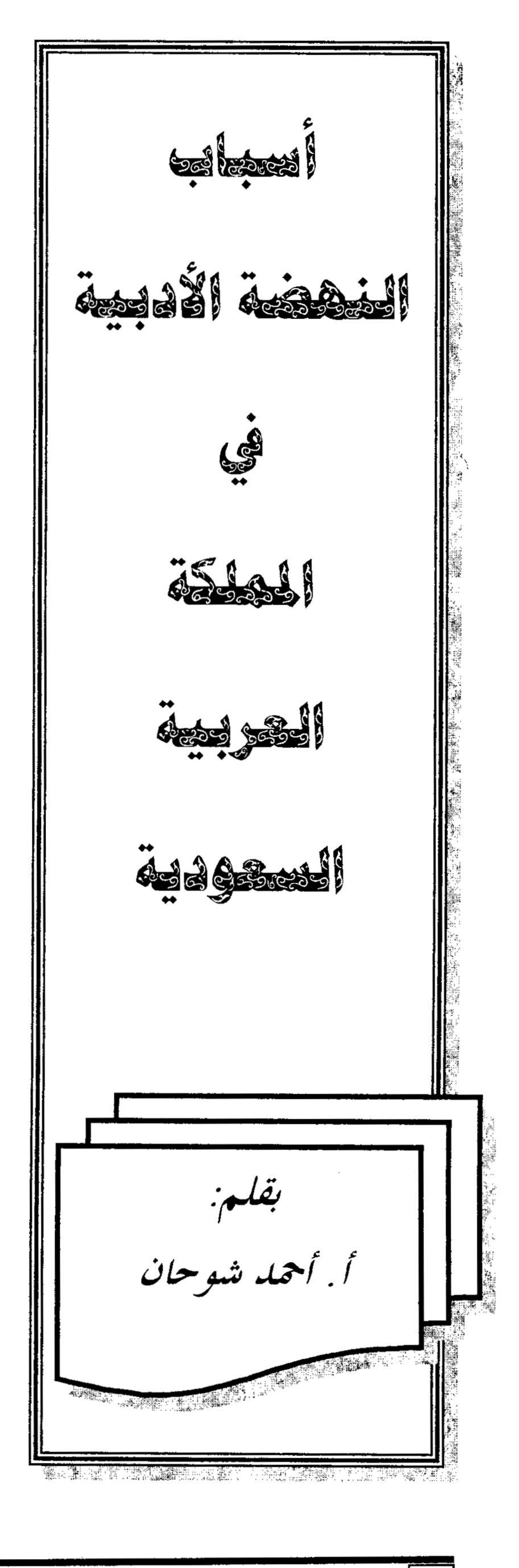
الـتي تبدو بريئة للنيل من لغتنا العربية تصبّ فـي خدمة مشروع استعماري خطير مدروس ممـول يتهم لغة الحضارة والانفتاح والتعايش بالتعصـب والكـراهية والصدام مع الحضارات الأخـرى. إن الهـدف من حملة العداء للعرب ونشر الكراهية ضد ثقافتهم ولغتهم هو القضاء عـلى روحانيـة الشـرق التي تنعم بها التي ورثـناها فكـراً وأخلاقاً ولغة تعايشاً وتناغماً وغنىً متبادلاً بين الأديان السماوية.

إن الحديث عن "صعوبة" اللغة العربية نـاجم عـن جهـل باللغة أو حقد عليها وعلى عـروبة العـرب، فكيف تنسجم اللغة الصينية الـتي تـم إحياؤها مع الغرب وحداثته وكيف تتناغم اللغة الأوردية أو العبرية التي كانت لغة ميـتة مـع الغرب، بينما تتناقض اللغة العربية الـتي قدمـت للغرب أفكار الفارابي وطب ابن سينا وفلسفة ابن رشد وتصوف ابن عربي مع عصرنة الغرب وفكره؟ لقد كانت اللغة العربية ومـازالت أداة طيعـة لنشر العلوم والمعارف والاخـتراعات والمفـاهيم الفكرية والفلسفية والديـنية في مختلف أصقاع الأرض. فمن أين أتت فجأة كل هذه المخاوف من "صعوبة اللغة" على الجيل الجديد؟ مازال الكثيرون في الوطن العـربي يتكـلمون الشـعر حتى من دون تعلم الكـتابة والقـراءة ومـازال الملايين يتكلمون العربية الفصحى بالسليقة السليمة لأنها تنسجم مـع المعـنى والـبلاغة والإحســاس بالفكر والرسالة المبتغاة منها.

إن لغتـنا كحضارتنا ومنطقتنا وأرضنا جميلة ومستهدفة من قبل أعداء فشلوا في أن يفهمـوا عمق الشرق وحضارة الشرق فعمدوا إلى تشـويهه مـن خلال نظريات الاستشراق والمتبنين لها والعاملين على ترويجها، واخذوا من أحداث الحادي عشر من أيلول ذريعة لشن حملة عداء وكراهية عنصرية شعواء على هذه الأمـة تمثلت باتهام جميع أبنائها بالإرهاب من أجـل تصـفية الصراع العربي – الإسرائيلي، والقضـية الفلسـطينية ونهـب ثروات العراق وحضارته التاريخية المجيدة. واليوم يتسع أفق هـذه الحمـلة ليشـمل اللغة والتراث والفكر والدين والإرث الروحي والاجتماعي لهذه الأمة برمـته. ولذلـك مـن المـتوقع أن يتم تمويل الأبـواق المحـلية التي ستردد هذه الطروحات عـن صعوبة "اللغة وقواعدها" وعن "ضرورة تغييـر هذه القواعد أو إلغائها" وعن "ضرورة تعديـل الأبجدية العربية" ومن المتوقع أن يعقد مؤتمـر هـنا ويصدر كتاب هناك لترويج هذا المشروع من الداخل وهذا الجزء من المشروع أكثر خطراً علينا جميعاً.

إن هـذا المشـروع العنصري وضع مخططـاً يمتد على عشرين سنةً للقضاء على اللغة العربية وفصل العرب تماماً عن تاريخهم وحضارتهم، فهل هناك من يضع خطةً تعليمية مقـابل هـذا المشـروع العنصري لتعي اللغة العـربية ألقها وأهميتها ومكانتها في العشرين سنةً القادمة؟

وهـل يـندفع وزراء الـتربية العرب واتحـادات الكـتّاب لتعزيز مناهج تدرس اللغة العـربية لأجيالـنا الصـاعدة كما علّمنا آباؤنا ومدرسـونا لغتنا الجميلة حيث يصبح الإعراب تعـبيراً عن فهم عميق للمعنى ويصبح التنقل بيـن الفصحى والعامية انسياباً لا كلفة فيه ولا جهـل، وتصـبح نـون النسوة والمثنى جزءاً جميـلاً وطـبيعياً مـن لغـة كتب علماء اللغة قواعدها بعد أن سمعوا كيف يتحدث الناس بها وتحكـم قواعدهـا عناصـر مـنطقية سـهلة ومنسـجمة مـع الفكر وسهولة الوصول إلى المعـنى مـع البلاغة والفصاحة والجذالة في الأداء. وإذا كان الطفل الفلسطيني مازال يقاوم الدبابـة الإسرائيلية بحجر، أليس حرياً بالعرب أن يدافعـوا عن لغتهم؟ فهي وعاء حضارتهم ورمـز هويتهم، ولا شك أن لغتنا العربية تمثل وجدان وأداة استمرارنا أمة لها قيمة وحضور بين الأمم.



بمناسبة اليوم الوطني للمملكة العربية السعودية شعرت بدافع كبير يشدني لمحاولة الكتابة عن أدب المملكة ودور أدبائها في النهضة الحديثة التي شملت البلاد شرقاً وغرباً، وطولاً وعرضاً.

وتذكرت جولاتي الكثيرة في أغلب مدن المملكة العربية السعودية مشاركاً في معارض الكتاب في الرياض، جده، مكة، الطائف، بريدة.. وما لمسته من دور الثقافة في حياة الإنسان، من خلال ما تقدمه الدولة للثقافة والمثقفين من خدمات جلّى لدعم مسيرة النهضة الشاملة، بالإضافة إلى الدعم المادي رأيت الدعم المعنوي الذي لا حدود له، فرؤساء الجامعات التي تشرف على إقامة هذه المعارض يلتقون الناشرين، ويحاورونهم في موضوع الكتاب ومشكلاته وسبل تطويره، والعقبات التي تعترض مسيرة تقدمه، لمست ذلك مراراً في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض وإشراف جامعة الملك عبد العزيز على معرض جده الدولي وما تقدمه هذه الجامعة من جهود تشكر عليها لإنجاح المعرض، وهيل الرعاية للناشرين بلا كيل، وأكبر من كل ذلك فقد لاحظت نهم القارئ السعودي، وعشقه للكتاب، والتقيت العديد من المؤلفين من خلال تجولهم في المعارض من شعراء وأدباء، ونسابين، ومؤرخين، وحداثيين.. يهدون مؤلفاتهم للمثقفين لنا كناشرين ومؤلفين وأدباء لجلسات خاصة في بيوتهم، ومناقشة موضوع المعارض والكتاب وطرح الحلول لمعضلات الكتاب، ومع أن الكتاب في المملكة من أقل البلاد العربية معاناة تقريباً، إلاَّ أنني شعرت أن المثقفين لا يريدون عرقلة الثقافة من خلال وضع العقبات أمام مسيرة الكتاب، بل وضع التسهيلات لنجاح المعارض، وما يرافقها من ندوات ثقافية ومحاضرات يومية ومسابقات تشجيعية للرواد والناشرين.

أقول: إن هذه الأسباب هي التي جعلت السعودية ترفع رأسها عالياً لتكون الرياض عاصمة الثقافة العربية عام ٢٠٠٠م.

الرياض عاصمة الثقافة العربية عام ٢٠٠٠م

حين أعلنت منظمة اليونسكو والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مدينة الرياض عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٠ كاد ذلك الإعلان عرساً حقيقياً لدى المثقفين والمسؤولين في سائر مدن المملكة.

وأذكر أنني قبل نحو سنتين من الاحتفال بعرس الثقافة كنت في عاصمة الثقافة، ولا أغالي إذا قلت: أنني كلما مررت بشارع لفت نظري يافطة كبيرة تشيد بذلك، وقد ملأت الشوارع اللوحات الضوئية ابتهاجاً بهذه المناسبة القادمة، أما المجلات والصحف والدوريات الأهلية والحكومية فكانت تملأ صفحاتها الدعايات، وعبارات البهجة، وبرامج العمل خلال الاحتفالات في مهرجان (الجنادرية) أو لبرامج المحاضرات أو الندوات المرافقة له.

وقد عقد جلالة الملك فهد بن عبد العزيز جلسة لمجلس الوزراء في ٢٤/١/٢٠٠٠م الموافق ١٧ شوال ١٤٢٠هـ اطلع من خلالها على برامج العمل المختلفة، والنشاطات التي ستقوم بها كل جهة بدورها، وقد حث من خلال هذا الاجتماع جميع الجهات المعنية ببذل أقصى الجهود لإنجاح هذه التظاهرة الفريدة.

ورعى أمير منطقة الرياض الأمير سلمان بن عبد العزيز الحفل الذي أقامته الرئاسة العامة لرعاية الشباب مساء يوم السبت ٢٢/١/٢٠٠٠ الموافق ١٥ شوال ١٤٢٠هـ بمناسبة بدء فعاليات اختيار الرياض عاصمة للثقافة العربية بحضور مدير عام منظمة اليونسكو، ومدير عام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وعدد من الأمراء والوزراء وكبار المسؤولين، وسفراء بعض الدول المعتمدين في المملكة، وعدد كبير من رجال الفكر والثقافة والإعلام العرب والأجانب.

وألقى المدير العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) كوتشيروا ماتسورا كلمة في هذا الحفل قال فيها: إن المملكة العربية السعودية هي من أعرق حلفاء اليونسكو، ومن أشدهم التزاماً بها في قضايا التربية والعلوم والثقافة، وأنكم لجديرون بالتهنئة على ذلك، وعلى سعيكم الدؤوب من أجل النهوض بالثقافة التقليدية، وصون التراث الثقافي فيما يخص القدس والبوسنا والهرسك.

ثم ألقى الدكتور محمد عبده يماني كلمة الأدباء والمفكرين السعوديين، أشاد فيها بالدور الكبير الذي تلعبه المملكة في تثمين ما تزخر به من تراث ثري ومتنوع، وانفتاح على الثقافات وحضارات الشعوب الأخرى.

النوادي الأدبية والثقافية والصالونات

تعتبر المملكة العربية السعودية من أغنى الدول العربية بالنوادي والصالونات الأدبية والثقافية. ففي كل مدينة ناد أدبي وثقافي، وفي كل مدينة أكثر من صالون ينعقد يومياً أو أسبوعياً، وهذه النوادي والصالونات تصدر نشرات أو دوريات عن نشاطاتها المختلفة شهرياً وربعياً وسنوياً، تتضمن المحاضرات والندوات والمهرجانات التي تشرف عليها، والمناظرات والمساجلات التي تدور فيها، والآراء التي تطرح من خلالها في نقد السلبيات، ودعم وشكر للنواحي الإيجابية.

ففي الرياض صالون الأديب الراحل عبد العزيز الرفاعي، الذي كان منزله محط رحال الأدباء العرب، وقد طاف البلاد العربية محاضرا وشاعراً وباحثاً.

وفي مكة المكرمة صالون الأديب الشاعر علي أبو العلا. وكانت مكة من قبل مشهورة بصالوناتها الأدبية التي تتمثل في مجالس الأدباء والشعراء والمثقفين.

وفي الرياض (نادي الرياض الأدبي) ورئيسه الأستاذ عبد الله بن ادريس.

وفي مكة (نادي مكة الثقافي الأدبي).

وفي المدينة المنورة (نادي المدينة المنورة الأدبي) ورئيسه الأستاذ محمد هاشم رشيد.

وفي جدة (نادي جدة الأدبي) ورئيسه عبد الفتاح أبو مدين.

وفي جيزان (نادي جيزان الأدبي) ورئيسه الأستاذ محمد علي السنوسي رحمه الله.

وفي أبها (نادي أبها الأدبي) ورئيسه الأستاذ محمد عبد الله الحميد.

ومدير عام الأندية الأدبية الأستاذ عبد الله الشهيل.

وتقوم هذه الأندية بعقد مؤتمرات دورية وسنوية لدعم الحركة الأدبية، وتوصي غالباً بما يلي:

١- الاستمرار في تكريم الأدباء تقديراً لجهودهم.
٢- الحث الدائم على إنشاء مجمع للغة العربية في المملكة.
٣- إنشاء مركز للترجمة لنقل الأدب المعاصر إلى اللغات الأخرى.
٤- إنشاء مجلة أدبية تبحث في أمور النوادي والصالونات وعطاءات الأدباء من خلالهما.
٥- تشجيع الكتاب السعودي من خلال طبع المؤلفات المحلية وتسويقها عربياً وعالمياً.
٦- طبع مؤلفات الرواد الأوائل كاملة لتعريف المعاصرين بهم.
٧- المشاركة الأدبية في القنوات الفضائية.
٨- إيجاد موقع على شبكة الأنترنت لنشر الإبداعات الأدبية.
٩- إنشاء مركز معلومات عن الأدباء السعوديين على الحاسوب، وذلك تشجيعا لدراسة حياتهم.
١٠- تفويض جامعة أم القرى والرئاسة العامة لرعاية الشباب بمتابعة ذلك.

الرئاسة العامة لرعاية الشباب

تأسست الرئاسة العامة للشباب في الرياض عام ١٩٥٢ وهي تابعة لوزارة الداخلية، وشملت الاهتمام بالآداب والثقافة والرياضة. ثم انتقلت في عام ١٩٦٠ إلى وزارة المعارف ثم أُسندت إلى وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، وفي عام ١٩٧٤ صدر قرار مجلس الوزراء بتحويل تلك الإدارة إلى جهاز مستقل تحت اسم: الرئاسة العامة للشباب ترتبط بالمجلس الأعلى لرعاية الشباب. وقد بذلت هذه الرئاسة جهوداً مشكورة في طباعة وتوزيع الكتب الأدبية والثقافية مجاناً، بالإضافة إلى طباعة الخرائط والأطالس والكتب التاريخية والجغرافية، وقد شاهدت مندوبيها في معارض الكتب الدولية في عدة عواصم عربية يوزعون في جناحهم الخاص مطبوعاتهم مجاناً، وفي الرياض يطلبون من الزوار زيارة الرئاسة في مكتبها حيث توزع كميات كبيرة للزوار والباحثين ومدراء المدارس لتوزيعها على الطلاب مجاناً.

كما تقوم الرئاسة لدعم النوادي الأدبية والاتحادات الرياضية من خلال الجمعية السعودية للثقافة والفنون التي تأسست في الرياض عام ١٩٧٢، وتشجع المسابقات في مجال الأدب والشعر والفنون، وتشارك في معارض الكتاب العربية والدولية. وتقوم بتوزيع كتبها مجاناً، أو تعرض مطبوعاتها للعرض فقط، ثم تهدي الكتب المعروضة لإدارة المعرض.

الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون

تأتي هذه الجمعية كرافد من روافد النهضة الثقافية التي تشهدها المملكة، ومقرها في الرياض، ولها تسعة فروع منتشرة في المحافظات الأخرى. ومن مهام هذه الجمعية ما يلي:

١- تشجيع حركة الفنون التشكيلية.
٢- تنظيم المعارض الجماعية (رسم، تصوير ضوئي).
٣- الاهتمام بالمسرح وإنتاج وعرض المسرحيات الهادفة.
٤- الاهتمام بالتراث طباعة ونشراً، والتقاليد الشعبية ممارسة وتدويناً، للحفاظ عليها.
٥- تنظيم الندوات والمحاضرات والمهرجانات الأدبية والثقافية.
٦- المشاركة في المهرجان الوطني للتراث والثقافة الذي يقام سنوياً في الرياض.
٧- تكريم الأدباء والمثقفين المبدعين.
٨- تقديم جائزة سنوية تقديرية لثلاثة من الأدباء السعوديين، كما استحدثت جائزة الأمير فيصل بن فهد لثقافة الطفل السعودي.
٩- تقوم بنشر الوعي الفكري ومناهضة انتشار المخدرات، وتقديم برامج توعية للجنسين.

وتصدر الجمعية مجلة نصف شهرية تهتم بأمور الثقافة والكتاب والفنون، كما تقوم بنشر الكتب وتقدم المجلات والنشرات مجاناً.

مجمع الملك فهد لطباعة القرآن الكريم

يقوم هذا المجمع بخدمة القرآن الكريم طباعة وتفسيراً وترجمة، وتوزيعاً مجانياً داخل المملكة وخارجها في جميع أنحاء العالم، وقد افتتح هذا المجمع في عام ١٤٠٥هـ وقام بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات التالية: (الإنكليزية، الفرنسية، الإسبانية، الفارسية، الأوردية الكورية، الهوساوية، المليبارية) وفي البرنامج المستقبلي ترجمة معانيه إلى سائر لغات العالم. وقد شارك هذا المجمع في نشر كتب السنة، ونشر آدابها وترجماتها، فبعد نحو عشر سنوات من افتتاحه (عام ١٤١٦هـ) قام بطباعة وتوزيع أكثر من /١١١/ مليون نسخة وذلك عند قدوم الحجاج والمعتمرين للديار المقدسة، أو إرسالها إلى الدول النائية مثل البوسنة والهرسك والشيشان وأفغانستان والدول الأفريقية ودول المنظومة الإشتراكية المفككة في أوربا الشرقية، والدول الإسلامية التي كانت خاضعة للحكم الشيوعي السوفييتي، ويضم هذا المجمع حوالي /٢٠٠٠٠/ عالم وإداري وفني.

كلمة أخيرة

إن أغلب الوزارات في المملكة تصدر صحفاً خاصة بها، كما أن معارض الكتاب الكبرى في الرياض وجدة تصدر صحفاً يومية تغطي نشاطات المعارض، وعدد الكتب المباعة، ونوعيتها، وعدد الزوار، بالإضافة إلى العديد من الجوائز التشجيعية التي تقدمها جهات خاصة لدعم الثقافة، ويأتي في مقدمتها جائزة الملك فيصل العالمية التي تمنح جوائزها لكبار المبدعين العالميين في كافة المجالات الإنسانية والعلمية والثقافية.

وأعتقد أن الدول العربية لو حذت حذو المملكة في خدمة الثقافة لكانت هناك وحدة ثقافية عربية، ولوجد المثقفون العرب ضالتهم المنشودة في الثقافة الرفيعة التي يسعون من أجلها، ويبذلون ما بوسعهم لتعميمها على الساحة العربية من المحيط إلى الخليج.






شعر: د. سعاد الصباح

يُحِـــبُّ أن يـــلمَحَ شِـــعـ

ـــري كالـــربَيعِ مُزهـــرا

وكالصَـــباحِ مُشـــرِقاً

وكالـــرياضِ أخضَـــرا

وكالغِـــناءِ مُســـعِدا

وكالسُـــلافِ مُســـكِرا

وكالشُـــعاعِ ضـــاحكاً

وكالـــنُجومِ نيِّـــرا

لا يَطـــبَعُ الحُـــزنُ عَـــلَيـ

ـــهِ سِـــمَةً أو أثَـــرا

يُحِـــبُهُ مُدَلَّـــلاً

مُـــنمَّقاً مُعَطَّـــرا

يُـــريدُهُ مُزَغـــرِداً

مُهَـــلِّلاً مُستَبشِـــرا

يقـــولُ لـــي أنـــتِ مِـــنَ الـــ

ـضِـــياءِ أصـــفى جوهَـــرا

وأنـــتِ أنـــقى مِـــن مَـــلا

ئِـــكِ السَّـــماءِ عُنصُـــر







ففيـــــــم هـــــــــذه الدُمـــــو
عُ تَســــــــــتَحيلُ أنهُـــــــــرا
وأنـــــتِ أحـــلى مـــا جـــلا الــــــ
ـــــــلَهُ لَـــــــنا وصَـــــوّرا
فلــــتطرَحي مِـــن قَلــبِكِ الـــــ
ـعَــــــنـاءَ والــــــــتطيُّرا
وتــــنظُري لـــــلياسِ نَظـــــــ
ــــرَةَ الـــــنُجومِ للــــثَرى
وتُطـــلِقي فـــي شِـــعرِكِ الــــــ
ســـــلامَ والـــــــتَحَرُّرا
وتَـــزرَعي فـــي ضَـــفَّتَيـ
ـــــه الأمَـــــلَ المُـــــنَوَّرا
وتجعَـــــلي الفـــرحَةَ فــــي
رُبـــــاهُ تَجـــري كَوثَـــرا
وتنشـــــري لحـــــنَ الهَـــوى
عـــلى السُـــفوحِ والـــذُرى
قولـــي لِمَـــن كـــانَ هَـــوا
ك وَهَــــــواهُ قَــــــدَرا
أُحـــــبُّكَ الحُـــبَّ الَّـــذي
تُــــــريدُهُ وأكـــــــثَرا
أقولُهـــــا وأزدَهـــــي
بقولِهـــا بيـــنَ الـــوَرى
فإنَّمـــا الحُـــبُّ مِـــنَ الـــ
إيمــــانِ إن تَطَهَّـــــرا
يُـــبارِكُ اللهُ بِـــهِ الــــــ
أرضَ ويَهـــــدي البَشَـــرا



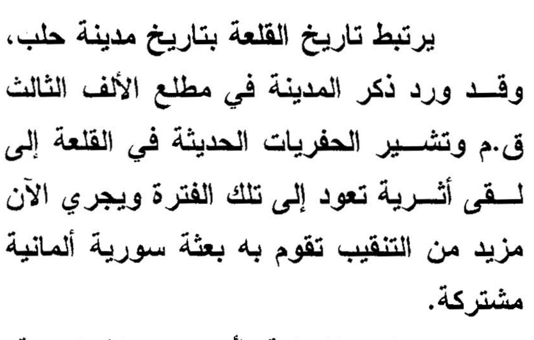

قلعة حلب

بقلم:

أ. محمد قجة

رئيس جمعية

العاديات السورية



يرتبط تاريخ القلعة بتاريخ مدينة حلب، وقد ورد ذكر المدينة في مطلع الألف الثالث ق.م وتشير الحفريات الحديثة في القلعة إلى لقى أثرية تعود إلى تلك الفترة ويجري الآن مزيد من التنقيب تقوم به بعثة سورية ألمانية مشتركة.

كانت القلعة (أكرووبول) المدينة، وفيها كانت معابد الآلهة التي تمثل الحضارات المتعاقبة على المدينة: حدد وشمش وسين، وتمثل هذه الآلهة الثالوث الحلبي المقدس، بحيث يمثل حدد الرعد والصاعقة، وشمش يمثل الشمس كرمز للعدل، وسين يمثل الهلال كرمز للوقت، إلى جانب الآلهة الأخرى مثل: دجن إله الخصب، وعشتار آلهة الحب. وكانت أسماء الآلهة تتبدل بتبدل السلطة الحاكمة بين عمورية وحثية وميثانية وإغريقية ورومانية.

ثم أصبحت القلعة مكاناً للعبادة المسيحية، وبعد ذلك بنيت فيها المساجد في العصور الإسلامية.

تتحدث الروايات التاريخية عن أن أول من استخدم القلعة للدفاع والتحصين العسكري هو سلوقس نيكاتور الذي جاء بعد الاسكندر. واتخذ من القلعة مقراً عسكرياً، أما الرومان والبيزنطيون فقد جعلوها المقر الرسمي لإقامة حاكم المدينة. وبنى البيزنطيون فيها كنيستين.

دخل العرب المسلمون مدينة حلب صلحاً عام ١٦هـ/٦٣٧م. ولم يتخذوا القلعة مقراً للولاة، وإنما عمدوا إلى بناء قصور خارج أسوار المدينة للإقامة فيها. مثل قصر الناعورة الذي بناه مسلمة بن عبد الملكة،

والحاضر السليماني الذي بناه سليمان بن عبد الملك، وقصر بطياس الذي بناه صالح بن علي العباسي.

ومنذ أيام سيف الدولة الحمداني يعود الاهتمام بالقلعة كمركز عسكري حصين ضد هجمات بيزنطة، وكمقر للحكم بعد أن هدم نقفور فوكاس 'بيزنطي قصر الحلبة خارج باب انطاكية عام ٣٥١هـ/٩٦٢م.

وتكرس استخدام القلعة مقراً للسلطة السياسية أيام بني مرداس ٤١٤-٤٧٢هـ/ ١٠٢٥-١٠٧٩م. وقد أدى ذلك إلى تصاعد الاهتمام بالقلعة وبنائها وتحصينها وتزيينها.

واستمر الأمر على هذا المنوال في الفترة السلجوقية، وبعدها المرحلة الزنكية حيث أعاد نور الدين ترميم القلعة وبناء سورها، وبنى فيها مسجداً بقي حتى اليوم، وأنشأ فيها سجناً لأعدائه الأسرى من الفرنجة، وقد دخل هذا السجن عدد من أمراء الصليبيين في الشرق مثل (بودوان) ملك بيت المقدس ودوشاتيون أمير انطاكية.

وتبلغ القلعة ذروة مجدها وازدهارها أيام الظاهر غازي الأيوبي، الذي حكم حلب ثلاثين سنة وترك فيها من العمائر والمباني ما لم يسبقه إليه أحد.

يعتبر عصر الظاهري غازي بن صلاح الدين الأيوبي العصر الذهبي بالنسبة لقلعة حلب، ويعود شكلها الحالي إلى أيامه. لقد أنشأ فيها من الأبنية المختلفة ما وصل عدده إلى ٢٦ بناء من قصور ومساجد وحمامات وصهاريج وأبراج وجسور ومخازن. وحفر حولها خندقاً بناه بالحجارة. وشيد قصراً عرف باسم (دار العز) كان آية في فن العمارة.

لقد تحولت القلعة أيام الظاهر غازي إلى مقر ملكي بمعنى الكلمة وتكامل لها البناء العسكري الحصين إلى جانب البناء الجميل المترف، واستطاعت أن تكون مدينة داخل المدينة باستقلالها واعتمادها على إمكاناتها الذاتية.

في عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م حاصر (هولاكو) مدينة حلب بعد سقوط بغداد المروّع، وقد استسلمت المدينة وفق شروط الصلح. ولكن هولاكو غدر بالمدينة والقلعة وقام بتخريبها ومعه ملك (سيس) الأرمني وقتل حامية القلعة، وغادر التتار حلب بعد هزيمتهم في (عين جالوت) ولكنهم عادوا إليها بعد سنة فخربوا ما تم تعميره.

وقد رمم كل من بيبرس وقلاوون والأشرف خليل بعض مباني القلعة ولكنها لم تعد إلى سابق مجدها.

وحلت بها كارثة أخرى عام ١٤٠٠. حينما اجتاحها تيمورلنك فدمرها مع مدينة حلب وشرّد سكانها وقتل من بقي منهم.

ولكن حاكم المدينة المملوكي (جكم) نائب السلطنة، قام بأعمال كبرى لإعادة بناء القلعة وترميمها وإصلاح خندقها متوخياً المحافظة على صورتها الأيوبية. وبنى فيها برجين إلى الشمال والجنوب، كما شرّع ببناء قاعة العرش التي أتمها السلطان المملوكي (المؤيد شيخ) وأعاد السلطان (قايتباي) بناء سقف القاعة واستكمله السلطان (قانصوه

الغوري) وجعل له تسع قباب جميلة، واتخذ من القلعة مكاناً للاستعداد لمعركته الفاصلة مع السلطان سليم العثماني.

ومنذ عام ١٥١٦ أصبحت حلب وقلعتها ولاية عثمانية بعد هزيمة المماليك في معركة (معرج دابق) ولم تعد للقلعة قيمة عسكرية كالسابقة. وكان الوالي العثماني يقيم فيها أحياناً، وفي قصور أخرى في أكثر الأحيان. وتعرضت لتخريب كبير في زلزال ١٨٢٢، وقام إبراهيم باشا المصري باقتلاع أحجار الخندق ليبني بها ثكنة عسكرية داخل القلعة، فأساء بذلك إلى القلعة إساءة كبرى.

وأقامت فيها حامية فرنسية أيام الاحتلال الفرنسي، وقد قام كولونيل فرنسي بسرقة المحراب الخشبي الجميل من مسجد إبراهيم الخليل في القلعة ونقله إلى فرنسا في أوائل العشرينات من القرن العشرين، ولا يزال هناك.

وصفها

يبلغ طول القلعة عند أسفلها ٥٥٠م بعرض ٣٥٠م وفي أعلاها ٣٧٥م بعرض ٢٧٥م فهي بيضوية الشكل. وترتفع عن أرض المدينة ٣٨ متراً. ويبلغ عرض الخندق ٣٠م بعمق ٢٢م وانحدار شديد مبلط بأحجار كبيرة، أما أبنية القلعة فهي على الشكل التالي:

أ- المدخل الخارجي: وهو برج بارتفاع ٢٠م، عليه كتابة قانصوه الغوري وله بابان وفتحات لقذف السوائل المحترقة. وكان يتصل به جسر متحرك يرفع في حالة حصار القلعة.

ب- المدخل الرئيسي: ويرتبط بالمدخل الخارجي من خلال جسر ذي ثماني قناطر. قسمه الأسفل من أيام الظاهر غازي، وقسمه الأعلى مملوكي. وبابه جانبي منعاً لاستعمال رأس الكبش في دك الباب. وعلى الباب نحت لثعابين وكتابات تحمل اسم قلاوون والأشرف خليل.

ج- الباب الثالث في البرج الذي يمثل المدخل الرئيسي وعليه رسم أسدين بينهما شجرة نخيل. وفي آخر المدخل باب رابع هو باب الأسدين الضاحك والباكي وهو من أيام الظاهر غازي الأيوبي. وبين كل هذه الأبواب غرف وكوى للدفاع وقذف السوائل المحرقة والكرات الحجرية. وأمام الباب الأخير مقام الخضر (مار جرجس).

د- الممر الرئيسي في القلعة بعد اجتياز الأبواب الدفاعية، وتبدو فيه آثار التخريب من الزلازل والحروب. ونجد على يمين الممر درجاً يوصل إلى بئر يسمى (الساطورة) وبعده القصر الملكي الأيوبي، ثم حبس الدم الذي كان أساساً صهاريج مياه ثم استخدم سجناً. وإلى جانب مدخل حبس الدم بقايا المعبد الحثي من القرن ١٠ق.م وفيه حجر بازلتي يمثل الثالوث الحلبي: (حدد وشمش وسين).

أما إلى يسار الممر فهناك حمام وبعده مسجد إبراهيم الخليل الذي سُرق محرابه الخشبي وتشير الكتابة فيه إلى أيام نور

الديــن الزنـي. وفي أعلى الممر إلى اليسار الجــامع الكبير في القلعة الذي بناه الظاهر غــازي بمئذنته الأيوبية المربعة التي تطل على كل مدينة حلب.

هـــ- ثكـنـة إبراهيم باشا، وتقع جنوب شرق القــلعة، وقد بنيت عام ١٨٣٤، وهي الآن متحف يضم اللآى الأثرية في القلعة. وإلى جانــبها نفــق يـؤدي إلى درج مؤلف من ٢٢٥ درجة يتصل بثلاث فتحات تؤدي إلى مــنافذ خــارج القــلعة وإلى جنوبها قاعة كــبيرة كانت تستخدم مستودعاً للحبوب في العهــود الإسلامية وقد تكون صهريج مياه أيام البيزنطين.

و- القصر والحمّام الملكيان: تشير كتابات إلى أن بــناء القصر يعود إلى أيام الملك العزيز محمــد ابن الظاهري غازي، ولم يبق من القصــر إلاّ بقايا غرف وباحة ومقرنصات جميــلة. وخلفه باتجاه الشرق يقع الحمام الذي يعود بناؤه إلى أيام يوسف الثاني بن العزيز محمد. وقد بقيت منه أرضية جميلة مــن الأحجار السوداء والبيضاء ومصاطب وغــرف اســتحمام وأماكن تمديد قساطل المياه الحارة والباردة. وقد تم حديثاً ترميم الحمام.

ز- قاعة العرش: وتقوم فوق المدخل الرئيسي للقــلعة وتشــرف واجهتها على المدرسة الســلطانية التي تضم ضريح الظاهر غازي اليوبي.

وللقاعة شكل مربع تقريباً ٢٦,٥×٢٣,٥م وقد زين مدخلها بمقرنصات جميلة تتناوب فــي إحجارهــا ألــوان صــفراء وسوداء وبيضــاء وقد بدأ بناءها جكم سيف الدين الممــلوكي وأكمــلها المؤيد شخ، ورممها قايتــباي وأعــاد ســقفها قانصوه الغوري بقبابه التسع.

وتجــري الآن تــرميم قاعــة العرش وفق طــراز البيوت الحلبية العريقة، وقد تهدمت قــباب السقف، فأعادت مديرية الآثار بناء السقف بشكل مستو.

وفــي القاعة كوى لرمي السهام والسوائل المحــرقة، وفي إحدى زواياها باب مؤدي إلى مدخــل ســري نحــو قاعة الدفاع في المدخل الرئيسي، وفي واجهتها نافذة كبيرة كتب عليها:

كتب السعد على أبوابها ادخلوها بسلام آمنين

ح- الــبرجان الشمالي والجنوبي: وقد بناهما الأميــر سيف الدين جكم وجددهما السلطان قانصــوه الغــوري، ويبدو أنهما يرتبطان بســرداب ســري بالمبنى الرئيسي للقلعة وبســرداب آخــر يتصــل بــدار العدل في مواجهة القلعة.

الكتابات الباقية فيها

لا يــزال في القلعة أكثر من ٤٠ كتابة عــربية، يعــود أقدمها إلى الفترة المرداسية، وتحمــل هذه الكتابة اسم محمود بن نصر بن صالح بن مرداس ٤٦٥هــ/١٠٧٣م.

وهــناك كــتابات مــن أيام نور الدين الــزنكي، وكتابات كثيرة من أيام الظاهر غازي الأيوبي وولده العزيز محمد.

كما أن هناك كتابات مملوكية عدية تحمل أسماء جكم وبرقوق والمؤيد شيخ وقايتباي وقانصوه الغوري.

وهناك كتابة عثمانية وحيدة من أيام سليمان القانوني ٩٢٨هـ/١٥٢١م.

أجمل ما قيل في قلعة حلب

زار قلعة حلب خلال العصور المتلاحقة عدد كبير من الرحالة، وقيل فيها الكثير من الشعر، وهذه أمثلة مما قيل في القلعة:

قال الخالدي شاعر سيف الدولة:

وخرقاء قد تاهت على من يرومها
بمرقبها العالي وجانبها الصعب
يزر عليها الجو حبيب غمامة
ولليبسها عقداً بأنجمه الشهب
إذا ما سرى برق بدت من خلالها
كما لاحت العذراء من خلال السحب

قال ابن الزكي يهنئ صلاح الدين بفتح القلعة ويبشره بفتح بيت المقدس:

وفتحك القلعة الشهباء في صفر
مبشر بفتوح القدس في رجب

وكان الرحالة ابن جبير قد زارها وقال فيها:

"ولها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع، معدومة الشبه والنظير بين القلاع، تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع".

وزارها ابن بطوطة خلال رحلته فقال فيها:

"وقلعة حلب وبداخلها جبّان ينبع منهما الماء فلا تخاف الظمأ، ويطيف بها سور وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء، وسورها متداني الأبراج قد انتظمت بها المعالي العجيبة المفتحة الطيقان، وكل برج منها مسكون والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد."

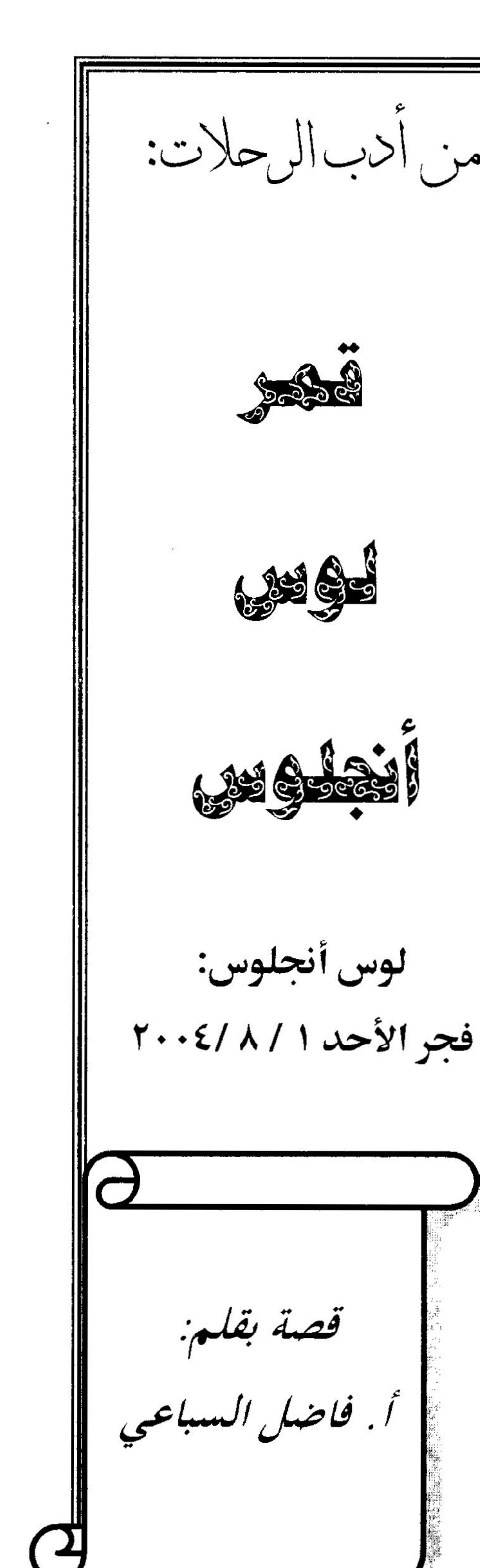
وقد عدها التبروني من عجائب الدنيا الثلاث، وتحدث عنها ياقوت الحموي في معجم البلدان بإعجاب كبير.

وتحدث عنها من الرحالة والزوار الأجانب كل من:

- دارفيو الفرنسي قتصل فرنسا في حلب ١٦٧٩- ١٦٨٦.
- بوكوك الإنكليزي.
- روسو الفرنسي.
- الأخوان رسل الإنكليزيان.
- سوبر نهايم.
- هرزفلد.
- فان برشم.
- سوفاجيه.
- بلوادي روترو.

وفي العصر الحديث تغنى بها كثير من الشعراء، منهم عبد الله يوركي حلاق في قوله:

شاخ الزمان وقلعة الشهباء ظلت في صباها
ربضت على التل الأشم فروعت أعتى عداها
سئل الزمان بمن تباهي، قال بالشهبا وتاها



العطلة الأسبوعية، عند الشابّين اللذين أقيم وإيّاهما، مختلفة: فهي عند أحدهما يوما السبت والأحد، ويعمل الآخر لحسابه فهو يعطّل وقت يشاء. وأما ابنتي فهي - بعد البيت - موزّعة بين أن تخطط على الورق "اسكتشات" تُحضّر بها لمعرضها الفني القادم، وبين أن تعود من المكتبات متزوّدة بهذا الكتاب أو ذاك عن الفنّ الذي تمارسه، التشكيلي، تُقلّب صفحاته وتقرأ ما يهمّها، قبل أن تودعه خزانة الكتب. وأما أنا، فإني أصبحت، منذ حللت في لوس أنجلوس، واحدا من مرتادي مكتبتها العامة، وأعني فرعها في الحيّ الذي أسكن، "نورث - ريدج Northridge"، حيث أكتب ما يعنّ لي على مدى سويعات، دون أن تمتدّ يدي إلى كتبها المتاحة أو أجهزتها الإلكترونية المباحة، وآخر ما فرغت منه نصٌّ صغتُه في شكل "مقامة" تدور حوادثها حول السلطان طَيْبوب المحبوب، وشرعت في كتابة نصٍّ آخر مختلف.

ذلك المساء قالت ابنتي بعد أن نهضنا من العشاء:

- غدًا السبت، نذهب إلى الشاطئ.

قلت متعلّلا:

- ولكنني بدأت اليوم بكتابة نص جديد، وفي الرأس أفكارٌ تغريني بمتابعة الكتابة ضحى غد.

ردّتْ غيرَ مهادنة:

- ألا يكفيك، يا أبت، خمسة أيام في الأسبوع كتابة؟ فلتعطل يومين إثنين مثل ما أصبح يتمتّع به العاملون في الوطن؟

كانوا قد اشتروا لي من عدّة البحر، "مايوه" على شكل "شورت" محتشم.

وطلبوا مني أن ألبس الـ''تي ـ شيرت'' على اللحم. قلت محتجّا:

ـ قد أبرد على البحر، يا أولاد، وأنا، مع أني منتصب القامة كما ترون، ابن خمسة وسبعين.

فخدعوني بقولهم: "أنت شباب"!

بعد الظهيرة انطلقنا من ضاحية ''نورث ـ ريدج (ريدج الشمالية!)'' التي تقع في الشمال الغربي من مركز المدينة ''لوس أنجلوس''. وكان علينا أن ندخل طريق الـ''فاليValley'' (الوادي) جنوبًا للوصول إلى الغرب باتجاه الشاطئ المسمّى ''فينيس Venice''... ويا له من طريق، أكثر ما يسترعي الانتباهَ فيه التشجيرُ الذي يغطي التلال والجبال على الجانبين. ولمّا اجتزناه، طريقَ الفالي هذا، كان علينا أن ندخل في طرقات فرعية، تحُفّها البيوت والفيلات والعمائر، والأشجار التي نراها كثيفة الأغصان، تلتمع أوراقها فكأنّ يد الطبيعة تمسحها في كل آن. وكانت سيارتنا، في اجتيازنا الطريق، تزداد سرعة أو تبطئ حتى التوقف حسب الازدحام، في هذا اليوم الذي يتسابق فيه أهل لوس أنجلوس إلى الشواطئ المطلة على المحيط الهادئ (الباسيفيك)!

وانتهى بنا المسير إلى أحد الشواطئ في ''فينيس''، عند الساعة الرابعة. وفي مرآب مجاور للشاطئ، أودعنا السيارة، بعد أن دفعنا الرسم، ولكنا لم ندفع في دخولنا إلى الشاطئ رسما، فهو متاح للعموم.

نصبنا الشمسية، بأن غرس ''بشّار'' عمودها في الرمل. وفتح ابني ''فراس'' المظلة وركّبها. ومُدّ ''الحرام'' فوق الرمل بعد تسويته بالأقدام. وكانت الريح، القادمة من المحيط الهادئ، مشاكسة، فهي تقلب طرف الحرام ونحن نردّه، حتى ثبّتناه. وفتحنا الكراسي، واتخذ كلٌّ منا جلسة له.

ما أرتديه كان خفيفا. قلت:

ـ الدنيا بَرّدتْ، يا أولاد!

ولمتُهم على أننا تأخرنا في المجيء. فدفعت إليّ ابنتي ''سهير'' بما أجعله على صدري اتّقاءً للبرد، وهي آمنة على نفسها منه بما تزمّلت..

أراد الشابان أن يستحمّا. نزلا البحر تحت أعيننا، والأمواج تتدافع نحو الشاطئ، موجة صغيرة تليها موجة أكبر منها. فلما ارتفع الماء حتى الرُّكب، تركا وعادا. كانت المياه قد ابتردت في هذه الساعة المتأخرة من النهار، ولكنهما لم يعترفا بذلك!

على الشاطئ، في هذه الولاية (كاليفورنيا)، التي تمّ ضمّها إلى الولايات المتحدة في وقت متأخر نسبيا (في القرن التاسع عشر)، رأيت الناس ينتمون إلى مختلف الأجناس والأعراق. عيون مختلفة الألوان والأشكال، وبَشَرة متفاوتة اللون، من الأبيض الممعن في بياضه إلى الأسود الفاحم. وهم من ذوي الأصول المكسيكية (سكان الولاية الأصليين)، وممن تواردوا إليها بعد الاكتشاف، وكذلك ممّن حُملوا في القرون الماضية من إفريقية السوداء، وأناسٌ غيرهم من الصين وشرق آسيا... وهل أقول أنّ القلّة ممّن نرى بَدَوا لنا من أصول أوروبية!

تشمّسنا، وتلقّينا رطوبة البحر، وأكلنا الفواكه، وشربنا البارد. وشاهدنا في الفضاء مروحية (هليوكوبتر) تروح وتجيء ناشرة وراءها راية كبيرة نقرأ فيها إعلانا تجاريا، ومروحية أخرى قالوا أنها ''دورية

شرطة'' مهمتها مراقبة الشواطئ... وطيور النورس، التي شبعت ممّا اقتنصته من أسماك البحر، هي ذي تخطر وادعة بيننا نحن البشر، وكأنها تريد أن تستزيد من التعرّف علينا، وهيهات أن يخطر لها أنّ الإنسان يقتنص، يتصيّد، يقتل، ليس بداعي الحاجة وحدها ولكن هواية أيضا، على حين أنهنّ، النوارس الطيّبة، لا يقتنصنَ إلا ما يسدّ كلٍّ منهنّ به جَوعتَه!

وكان صهري بشّار، وهو على كرسيّه، يتسلّى بأن يحفر الأرض بقدمه العارية، ينبش بعَقب القدم ثم يجرف الرمل بمشطها، حتى أحدثَ حفرة ذات عمق، وكأنه ينقِّب عن النفط في بلد يقود حكامه الحروب ضدّنا، لا بحثا عن النفط وحسب، ولكن هيمنة على آباره، واحتلالا لأراضيه، واستبدادا بمن عليها من البشر!

ولأنّ العربيّ، أنّى شرّق أو غرّب، لا يفارقه حزنه وشجنه، يحمل منهما اضعاف ما يحمل من الفرح والمرح، فقد أنشأت أقول:

ـ إنّ أجدادكم، يا أولادي، أنجزوا أفضل ممّا أنجزت أمريكا اليوم. إنهم، بعد أن أتموا فتح البلاد القريبة من موطن الإسلام، أمعنوا حتى فتحوا معظم ما كان معروفا من الأصقاع في عصرهم، وأقاموا حضارة إنسانية حققوا فيها الجميل والرفيع والخالد. والعرب ما فتحوا مصرا من الأمصار إلا ظلّ الإسلام فيه باقيا، لم تشذ عن هذه القاعدة إلا الأندلس، التي يرحل اليوم إليها السيّاح من أنحاء المعمورة معجبين بآثارها مفتونين. لقد كانت الحضارة التي أبدعها الأجداد، أنموذجا فريدا في التسامح والتعايش وفي تقبّل ''الآخر''، وذلك ما أتاح المجال للجميع لأن يحققوا إبداعاتهم، من المسلمين الناطقين بغير العربية ومن معتنقي الأديان الأخرى الذين يستظلون راية الإسلام.

* * *

بعد هذا الحديث الهادئ، ومع انحدار الشمس نحو المحيط الهادئ، كان الانتعاش، الذي يبعثه فينا الهواء الآتي من البحر، قد تحوّل إلى برد. فقمنا نفكّ الشمسية، ونطوي الكراسي، ونضع متاعنا في السيارة. ثم أخذنا نمشي في نزهة على كورنيش البُلَيْدة المستقيم الممتدّ على الشاطئ من الشرق إلى حيث لا تُرى نهاية له.

كان هذا الطريق، الممتنعُ على السيارات، يعُجّ بالمصطافين، من كلّ الأجناس والألوان والأعمار، منهم من يتّجه مثلنا نحو الغرب ومنهم العائدون. وهناك من يركب الدراجات الهوائية مختلفات الأشكال، أو يدرجون على أنواع من الزحّافات والمُتَزَحْلقات. وبيوت الاصطياف تنتظم على جانب واحد من الطريق وبما لا يزيد على الطابقين، منفتحة على الشاطئ والمحيط. وبدا أن بعض هذه البيوت قد مسّتها أنامل فنية تجلّت بتماثيل في الفِناء، وزخرفاتٍ على الجدران، ونوافذ عالية حتى الأسقف، دون أن تفتقد العينُ بيوتا قد أكل الدهر عليها وشرب. وبين النباتات في أفنية البيوت، استرعى انتباهنا شجرٌ خفيض قد تفتّحت على سطحه أزهارٌ أَشبهت الياسمين، بنُجَيماته الخمس وبياضه الناصع، لولا أن تخلّت عنه عطرية ياسمين الشرق الساحرة. وفوجئنا أيضا بأزهار ''العَسَلَة'' النادرة ذات الرائحة العاطرة، التي يُسمّيها أهل حلب العسلة للونها الضارب إلى لون العَسَل (وفي دمشق ''العرتيلة'')،

وقد عايشتها صغيرا في بيتنا الحلبي، ثم استزرعتُها في بيتي الدمشقي بحيّ ''الروضة''. ذكرتني بالوطن ، فتقدمت أشمّ رائحتها، فإذا هي ولا رائحة لها. ظننت أنّ برودة الجو عطلت عندي حاسة الشمّ، فالتمست من ابنتي أن تشمّ... وإذا بياسمينهم وعسلتهم دون رائحة!

ويتّسع هذا الطريق فجأة، ونحن نسير متفرجين، فتظهر على الجانب الأيمن منه محالٌ تبيع الطُرَف وكلّ ما يستهوي المصطافين أو يحتاجون إليه. ولما كان الهواء الآتي من ''الباسفيك'' يزداد برودة، فقد رأينا بعضهم يدخلون إلى هذه المحالّ بأولادهم، ليخرجوا بأردية لهم خفيفة تقيهم شرّ البرد الذي لم يتوقّعوه، والذي ما زلت أتلقّى نصيبي منه بصمت بارد.

وفي اتساع الطريق كانت تشغل فسحات فيه فئة من الشطّار وأهل الفنّ والبِدَع والمشعوذين. عن بُعد رأينا أشباحا ترتفع عن الأرض ارتفاعا ملحوظا، بأن وصلوا بسيقانهم عُصِيًّا، يقومون بأداء مشهد تمثيلي أمام جمع من الناس. ولكن استلفتتْنا على مقربة حلقة أحاط فيها الناس بزنجيٍّ يقوم بأعمال شَطَارة، ما زالوا يتفرجون عليه ويطلقون من الضحكات أكثرها صخبا.

اقتربنا نحن الأربعة من الحلقة، وفي الصفوف الخلفية وقفنا، يشرئبّ كلٌّ منا بقامته قدر ما يستطيع. كان بجوار الرجل ''عدّة الشغل''، وقد أضاف إليها فتى بدا أنه اختاره من بين المتفرجين. كان الفتى نحيلا مرهفا وذا نظارة على العينين، قد أوقفه في مركز الحلقة منحنيا إلى الأمام شيئا ما، وفي فمه سيكارة، قد وعده بأنه سيشعلها له... من بُعد! إشعال سيكارة عن بُعد... كيف؟

أشعل المشعوذ نارا، فيما يُشبه كرة صغيرة مثبتة في نهاية عود. وبإمساكه العود من أوله، يُدني الكرة من السيكارة ويُبعدها، والفتى يخشى على وجهه من النار، ولكنه يتماسك أمام المتفرجين. والرجل يزيد الكرة التهابا، بأن يُغذيها من مادة مُلهبة لعلها الكحول، الذي يأخذ منه ما يملأ فمه، ثم يمجّه في الهواء عبر الكرة، فتندفع كتلة من اللهب من أمام عيني الفتى، فيجفل ويتمالك. والسيكارة، في ذلك كله، لا تشتعل حسب الوعد!

ويعمد المشعوذ إلى أن يحُكّ الكرة المشتعلة بفروة رأسه، فيتخلّف على الرأس الحليق شيء من الكحول المشتعل. ويمررها كذلك على ساعديه، وعلى صدره العاري وبطنه، فيستأثر بذلك بخوفنا وعطفنا معًا.

ليس هذا وحسب، ولكن المشعوذ كان يتحدث بطلاقة عجيبة، عن أيامه الحاضرة بما يعتريها من بؤس وفقر، وعن أيامه الماضية التي كانت أسوأ حالا: فقد ظلّ يتعاطى المخدّرات على مدى سنين، إلى أن أدخلوه مصحًّا في المدينة (فينيس) خاصا بالمشردين والمدمنين، فخرج وقد تخلّص من تلك الآفة المدمّرة. واليوم قد مضت عليه أعوام ثمانية وهو معافى، ولكنه يراها حياة مملّة و... قاتلة!

فيضحك الناس للمفارقة، ويستدرك:

ــ لا لا، أنا أمزح! إنّ الإقلاع عن التعاطي أمر جيد، صدّقوني. يوم كنت مدمنا هـزُل جسمي جدا. في تلك الأيام كنت أنام في الشوارع والحدائق، مثل كثير من المتعاطين...

كان المشعوذ، في أثناء تدفّقه بالحديث، يمتحن الناس بنظراته الثاقبة، فوقع، في مقدمة الصفوف، على الأنموذج الذي يبتغيه: فتى في العشرين أو دونها، مصبوغ الشعر بالأشقر الفاقع، يرتدي ''جاكيت'' من الجلد أسود اللون قد كُتبت عليه كلمات ورُسمت أحرف،، وغاصت قدماه في جزمة سوداء طويلة العنق في عزّ هذا الصيف، وعلى إحدى فردتَي بنطاله الأسود صور ملصقة!

وكانت تقف إلى جواره صديقته، عَبْلَة بيضاء البَشَرة، لا تقلّ عنه غرابة منظر، ليس فقط فيما ترتديه من كنزة حمراء تحت جاكيت ''جينز'' وبنطال عسكري مرقّش قد قصّ إلى ما تحت الركبتين، ولكن فيما فعلته برأسها: وقد أتت موسى الحلاقة على شعرها ''على الصفر''، عدا الناصية التي شدّت فيها ما أبقت من شعرها، المصبوغ بالأسود، وأرسلته وراء أذنيها وعقدته من خلف!

ما فعله الزنجي الناصح، أنه تقدم من هذا الفتى، وأخذه من كتفيه الإثنتين، فاستسلم هذا له متبسّما، واقتاده إلى مركز الحلقة، وهو في ذلك كله يتابع قوله:

ـ انظروا! إنّ تعاطي المخدرات والإدمان على الكحول شيء سيِّئ للغاية، يخرّب العقول، ويجعل المرء في حالة مزرية...

والناس يضحكون هذه المرة على الفتى، الذي غاضت بسمته وتورّد وجهه الأبيض. وبكل بساطة أعاده، ممسكاً به من كتفيه، إلى جوار صديقته.

ثم إنّ سيكارة الفتى الأول، الذي طال انتظاره، قد أُشعلت... ولكن بأن تناولها الزنجي من بين الشفتين، وأشعلها كما تُشعل السكائر، وردّها إلى موضعها! وضحك الناس للخدعة، التي بدا أنّ المشعوذ أراد بها إمتاعنا بلُعْبِه بالنار، وباستماعنا إلى نصائحه في الإقلاع عَن التعاطي والإدمان.

لم أنته من الحكاية. فقبل أن ينفضّ الجمهور ويمضي كلٌّ في طريقه، طلب الرجل منهم التبرّع، واعتلى كرسيا يرقب منه الناس، فاتحًا بين يديه حقيبة لاحتواء التبرعات، وهم يلقون فيها الدولارات فُرادى، فإذا اتفق أن رأى ورقة تزيد قيمتها على الدولار وهي في طريقها إلى الحقيبة، ردّد عاليا:

ـ خمسة دولارات، خمسة دولارات!

ولحظة تقدم واحد منا نحن الأربعة، وألقى في الحقيبة بـ''أمّ الخمسة''، لم ينتبه الرجل إليها. كان صوته يلعلع مخاطبًا بعضهم:

ـ رأيتُكم، يا أولاد الـ... (كلمة بذيئة) أنتم هناك الذين تهربون! (١)

* * *

مع حلول المساء ازداد إحساسي بالبرد وبالتعب معا. فاقترحت، وطريق العودة إلى المرآب غدا بعيدا، أن نلبث حيث نحن ويأتي أحدنا بالسيارة. ولما دخلناها احسست بالدفء وبالجوع أيضا. وفي انطلاقنا إلى ''نورث ـ ريدج''، عدنا نستمتع بمنظر الأشجار ذات الأوراق التي تلتمع تحت أضواء الليل.

تراءى لنا أن نتناول عشاءنا في ''مطعم النَّفَق Subway''، الذي يقدم الشطائر (السندويتش)، تعْدها لك المرأة ـ وهي عجوزٌ صينية ـ تنتظر منك أن تختار من أنواع اللحوم والسلطات والتوابل المسكوبة

أمامها في أوعية تناهز الأربعين عددا، ما تجعله في شطيرتك، وإنها لتصبر عليك، وإن طال بك الاختيار والحَيْرَة. ثم إنها دَرَجَت شطائرنا كلا في لفافة، ووضعتها، هذه الصينية اللطيفة، في صينية ظريفة، وأقبلت على الحاسوب تنقره بأصابعها، فندفع لها المستحقّ.

ونحن متحلقون حول طاولة على رصيف المطعم، نلتهم شطائرنا بشهية، لاحظ مَن نَقَدَ منّا المرأة الثمن، أنّ ما طلبتْه كان أقلّ ممّا ينبغي. فدخل المحلّ ليصحّح الحساب، ولحقنا به بالصينية مستطلعين، فعزّ على المرأة أن تخطئ في ذلك، وعادت إلى حاسوبها تستنطقه، ثم قالت:

ـ ليس هناك خطأ، يا سيدي!

ـ ولكنها أربع شطائر، وليست ثلاثا.

ـ إنّ في مطعمنا، هذين الأسبوعين، ''عرضا خاصا'': من يشتري إثنتين نقدم له الثالثة مجانا!

فخرجنا نضحك، ونقول بأننا لو كنا نعرف ذلك لطلبنا شطيرة خامسة بثمنها فنحصل على سادسة مجانا... ولكن علينا أولا أن نبحث عمّن يأكل الشطيرتين الكبيرتين في آخر هذا الليل!

* * *

في البيت سهرنا، نتنقل بين الفضائيات الأمريكية، وبين فضائيات الوطن هذا الذي لا يغادرنا، مستعيدين صورا من مشاهد اليوم، قبل أن يأوي كلٌ إلى سريره.

منتصفَ الليل، رأيت، عبر النافذة، قمر لوس أنجلوس يرتفع في السماْء بدرًا منيرا (نحن في منتصف جمادى الآخرة). إنه نفسه القمر الذي غادر سماء وطني قبل سُويعات عشر.

قلت أحدّث النفس: لو أنهض الآن فأكتب ما مرّ بي اليوم، وأنا تحت إطلالة القمر!

فتحت الطاولة الصغيرة، وأخذت قلما: "العطلة الأسبوعية، عند الشابين اللذين......".

سوف أضع القلم من يدي بعد هذه الكلمات:

يغادرني القمر، منحدرًا نحو الغرب، مجتازا المحيط الهادئ، حتى يصل إلى اليابان والصين قاطعًا آسيا كلها، غامرًا سماء بلادي بضوئه الحنون، فأوروبة والأطلسي، ليعود إليّ مساء غد... يكون، في دورته الأزليّة، قد عاود إطلالته على أمم، ما تزال تتحارب على سطح هذا الكوكب الصغير، الذي لا يعدو أن يكون في حجم رملة صحراء في هذا الكون العظيم!

القمر يرسل ضوءه على أمم الأرض، وأمم الأرض تتقاتل!

ومعذرة من الفنانة فيروز.

---

(١) في شأن هذا الرجل وما قدّمه من فنون براعته، كنت قد وصفت، في مسوّدة المقالة، ما قام به من رفع كرسيّ تضطجع فيه فتاة، وإسناد إحدى قوائم الكرسي على فكّه السفلي بالاستعانة بجسر صغير من مادة صلبة ألبسها فمه.

ولكنّ المفاجئ لنا أننا وقفنا، في الإنترنت، على موقع يحمل اسم www.tonyvera.com، يتبيّن لنا فيه أنّ الرجل قد عرض فنونه هذه وظهرت في عدد من أفلام هوليوود (الواقعة في محيط مدينة لوس أنجلوس). وقد بدا أنه، بعد أن استنفدت السينما ما عنده من بدع، عاد إلى الساحات العامة ليؤدي فنّه أمام الجمهور ويستحصل منه بشقّ النفس على تلك الدُّريهمات.




نهر السراب..

شعر: د. عمر النص

تـــــــتدفّقُ فـــــي دمــــــــيَ الصُــــــورَ

تــــــــتدفّقُ نهــــــــــراً مُـــــــــتّقدا

نهــــــــراً مكــــــــدوداً.. مُــــــــرتعدا

لـــــــم يَــــــدْرِ الصــــــخرُ مــــــتى ولِــــــدا

فأصـــــــيحُ مـــــــتى يــــــأتي المطَــــــرُ

*　　*　　*

يـــــا بحـــــراً ضـــــاقَ بمــــا أســــألْ

الأفـــــــقُ أمــــــامي مفـــــــتوحُ

والــــــــريحُ تجازبُهــــــا الــــــريحُ

لكـــــــنَّ شـــــــراعي مجــــــروحُ

أعيـــــــاهُ الشـــــوقُ فـــــلمْ يـــــرحلْ

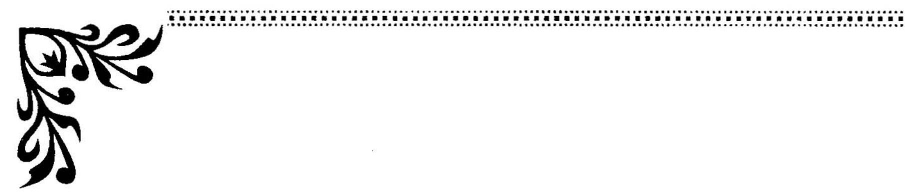
*　　*　　*

لـــــم أدْرِ مـــــتى انصـــــدعَ الحجَـــــرُ

فمشـــــــيتُ إلى الـــــــدربِ الوعـــــــرِ







يتمــــــــلملُ أســـــــــريَ مـــــــــن أســـــــــري

فـــــــلمحتُ هـــــــناكَ عـــــــلى الـــــــبحرِ

سُـــــــفُناً مـــــــازالتْ تنـــــــتظرُ

* * *

هـــــــلْ أعـــــــرفُ يومـــــــاً مـــــــن أنـــــــتِ

هـــــــل أعـــــــرفُ أيـــــــنَ بدايـــــــاتي

فـــــــي صـــــــدري عـــــــشٌ حكايـــــــاتِ

تـــــــتواعدُ فيـــــــه فراشـــــــاتي

لا يفـــــــتحُ إلاَّ إن جـــــــئت

* * *

لـــــــم أدرِ مـــــــتى أحببـــــــتُهما

لـــــــم أســـــــألْ كيـــــــفَ ولا مـــــــن أيـــــــنْ

لـــــــم أســـــــأل مـــــــا لـــــــونُ العَيْـــــــنينْ

بـــــــل رحـــــــتُ أفـــــــتّشُ عـــــــن نجميـــــــنْ

أبصـــــــرتُ حيـــــــاتي فوقهمـــــــا

* * *

أأحـــــــبُّكِ؟ إنَّ عـــــــلى شـــــــفتي

صـــــــوتاً يـــــــتردَّدُ محـــــــترقا

وغديـــــــراً باســـــــمكِ قـــــــد دفقـــــــا







ووعـــــــــودًا تعتـــــــــنقُ الأفُقـــــــــا

فتســــــــيلُ الـــــــنارُ بـــــــأوردتي

* * *

هـــــــــذي كـــــــلماتي تَحْـــــــترقُ

فليــــــنْسَ الـــــروحُ مـــــتى انهـــــزما

فهــــــنا نجمـــــانِ أحـــــبُّهما

لا أحـــــــلفُ إلاَّ باســـــــمِهما

فـــــلماذا لـــــم يضــــيءِ الأفـــــقُ

* * *

قولـــــــي: مـــــن شَـــــقَّ لــــــي العـــــتمه

مـــــن مـــــدَّ الـــــريحَ لأشـــــرعتي

مـــــن ســـــاقَ الســـــحرَ إلى شـــــفتي

يـــــا حُـــــبِّي! هـــــذي مُعْجـــــزتي

أن أجمـــــعَ عمـــــريَ فـــــي كـــــلمه..

* * *

لـــــمْ أســـــألْ مـــــتى نطـــــقَ القَـــــدَرُ

فالعـــــالمُ كـــــان بـــــلا حَـــــدٍّ

وغـــــدي مـــــا كـــــانَ ســـــوى وَعْـــــد

حـــــتى أقبـــــلتِ مـــــعَ الـــــرعْدِ..

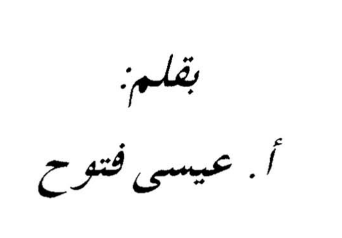
فعـــــلمتُ مـــــتى يـــــأتي المطـــــرُ..



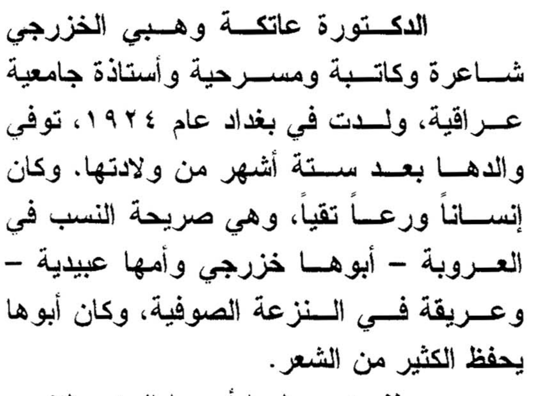

الدكتورة عاتكة الخزرجي

شاعرة الشوق والحنين

١٩٢٤- ١٩٩٨م



بقلم:
أ. عيسى فتوح



الدكتورة عاتكة وهبي الخزرجي شاعرة وكاتبة ومسرحية وأستاذة جامعية عراقية، ولدت في بغداد عام ١٩٢٤، توفي والدها بعد ستة أشهر من ولادتها. وكان إنساناً ورعاً تقياً، وهي صريحة النسب في العروبة - أبوها خزرجي وأمها عبيدية - وعريقة في النزعة الصوفية، وكان أبوها يحفظ الكثير من الشعر.

عطفت عليها أمها الرؤوم لتنسي وحيدتها مرارة اليُتم، فأدخلتها إحدى المدارس الابتدائية في بغداد، حيث أظهرت تفوقاً ملحوظاً ونبوغاً مبكراً، ثم إحدى المدارس الثانوية التحقت بقسم اللغة العربية بدار المعلمين العالية، فنالت الليسانسس في الآداب عام ١٩٤٥.

عملت بعد تخرجها مدرسة في إحدى المدارس الثانوية للبنات في بغداد، ثم دخلت عام ١٩٥٠ كلية الآداب في جامعة السوربون في باريس، حيث حصلت على الدكتوراه في الآداب عام ١٩٥٥ بأطروحة عن الشاعر العباسي (العباس بن الأحنف).

بعد أن عادت من باريس عملت مدرسة في قسم اللغة العربية بدار المعلمين العالية، ثم أستاذة للأدب الحديث في كلية التربية بجامعة بغداد، حتى أحيلت إلى التقاعد في أواخر الثمانينيات، وتوفيت عام ١٩٩٨ عن أربعة وسبعين عاماً.

آثارها الأدبية

١- مجنون ليلى (مسرحية شعرية) مؤسسة فن الطباعة - القاهرة ١٩٥٤.
٢- ديوان العباس بن الأحنف (تحقيق) القاهرة ١٩٥٤.

٣- أنفاس السحر (شعر) مؤسسة فن الطباعة - القاهرة ١٩٦٣.
٤- لألاء القمر (شعر) مطابع الشعب - القاهرة ١٩٦٤.
٥- إسماعيل صبري الشاعر الظريف المحدث (دراسة) بغداد ١٩٧٣.
٦- أفواف الزهر (شعر) المطبعة العصرية - الكويت ١٩٧٥.
٧- العباس بن الأحنف (دراسة) وزارة الإعلام - بغداد ١٩٧٧.
٨- نسيب الشريف الرضي - الحجازيات وقصائد أخرى (تحقيق) - دار الجماهير - بغداد ١٩٨٥.
٩- المجموعة الشعرية الكاملة (سبعة أجزاء) - مطبعة حكومة الكويت - الكويت ١٩٨٦.

دراسة شعرها

قالت عاتكة الخزرجي الشعر، ونشرت بعضه في الصحف، وهي في الرابعة عشرة من العمر، وغلب على شعرها الحنين والشوق إلى الحبيب والوطن والأم، ولا سيما بعد أن غادرت العراق لتكمل تحصيلها العالي في جامعة السوربون بباريس، حيث امتدت غربتها خمس سنوات، لم يكن شيء يؤنس وحشتها فيها، ويخفف من آلام وحدتها غير الشعر الذي أخذت تبثه أشواقها وتبوح له بما تعاني، ولولا أملها بالعودة إلى العراق بعد الانتهاء من دراستها لماتت قبل الفراق:

كيف السبيل إلى العراق
أيان يُؤذَنُ بالتلاقي
لولا التعلل باللقاء
لمتُّ من قبل الفراق

لقد عاشت في باريس آلام الغربة المضنية والشوق الممض إلى أمها، وإلى بغداد، والعراق والفرات.. فهي بعيدة عن كل هؤلاء، تفصلها الصحارى الواسعة، والقفار الشاسعة، غريبة لا جار يسليها، ولا حبيب يواسيها. تقول مخاطبة أمها في قصيدة (بعد الرحيل):

هذي فتاتُك تشتكي
فقْدَ الأحبةِ والديارْ
حيرى تقاذَفُها الدروب
غريبةً من غير جار
أواه لو تدرين ما تلقى
وقد بَعُدَ المزارْ
كيف السبيل وبيننا
البيدُ الرحيبةُ والقفار؟

والغريب أن باريس التي هي أم الدنيا، وبلد الحضارة والفتنة والجمال والبهجة والمتعة والسرور.. بدت لها أقفر من الصحراء، وما استطاعت أن تبدد وحشتها، أو تعوضها عن مرأى العراق وفراته الساحر فتقول:

أواه لو تدرين كم ضا
قتْ بها سُبُل الحياة
وبدت لها بنتُ الحضا
رة وهي أقفر من فلاه
وتلفتت نحو العرا
ق وأين منها أن تراه
وتشَّوفت تبغي الفرا
ت فلم تجد إلاَّ صداه

وتخـــاطب أمها التي تركتها وحيدة في بغداد، معبرة عن مشاعرها الصادقة، ولوعتها الدفينة قائلة:

أواه لـــــو تدريـــــن مـــــا
أقســـى الحيـــاة عـــلى الغـــريب
كـــم قـــد فـــزعت مـــن الظـــلا
م لوجهـــك الحـــلو الحـــبيبْ
أمـــــاه أنـــــت هـــــواي أنــــ
ــــت هـــواي أنـــت لي النصيبْ

وهـــي تحن إلى بغداد، وتشتاق إليها حـتى لو كانت في مصر التي هي أقرب إليها من باريس، وبين قدمها العرب:

كـــم بـــوادي الـــنيل أشتاق لوادي الرافدين
وكـــم بغـــداد فـــي مصر تراءت ملء عيني

وكما تشتاق إلى أمها والفرات وبغداد ومرابع الطفولة فيها.. فهي تشتاق أيضاً لتلك الـلحظات السعيدة التي كانت لها مع الحبيب، وتأسف على فواتها، ولا تدري هل كانت حلماً مـن الأحلام أو حقيقة واقعة؟ وهل كانت عمراً جديداً لها أو صبحاً يهديها في ظلمات دنياها:

كـــان حـــلماً يا ترى ذلك أم قد كان يقظة؟!
لحظـــات عابـــرات ســـنحت أم تلك لحظة؟!
لحظـــات هـــي أم عمـــر جديـــد الصـــفحات
مشـــرق يهـــدي الـــتي تاهت بدنيا الظلمات

وتصـــف تلك الزيارة الجميلة الخاطفة الـــتي جـــاد بها حبيبها عليها، ثم أعقبها هجرٍ طويـــل الأمد، كاد أن يقضي على توهّج الحب الهاجع في قلبها فتقول:

ألـــم بـــنا مـــا كان أحلى وأجملا
فمـــا ضرَّ لو دارى وداوى وعلّلا
ومـــا هـــي إلاّ غمضـــة وانتباهة
أمـــرّت علـــينا كل ما كان قد حلا
لقـــاءٌ وشـــيكٌ ثم بَيْنٌ على المدى
فيـــا للـــنوى للقلب ما كان أقتلا!

وتســـتعطف الحـــبيب الـــذي بذلت له الـــنفس رخيصة، ومع ذلك غدر بها وهجرها وابتعد عنها، فراحت تكابد آلام الهجر، ومرارة الـــبعد، حســـبها أن تموت شهيدة حبها الطاهر العفيف:

أمـــولاي فيـــمَ الهجرُ فيمَ التباعدُ
وحـــتَّام أقصـــى في الهوى وأُكابدُ
أمـــن بعد بذل النفس فيك رخيصة
تشـــكِّكُ حـــتى أعوزتْك الشواهدْ؟
غـــداً فيـــك تلقى الله خيرُ شهيدةٍ
عـــلى قلبها رسم من الطهر شاهدْ

وتســـأل حبيـــبها – مولاها وسيدها – لمـــاذا يردها خائبة دون ذنب ارتكبته، مع أن روحهـــا تشـــتعل بحـــرارة الحب.. وتتمنى لو يرحمها ويواسيها ويغمرها بجميل عطفه الذي لا يحد:

مـــا كـــان ذنـــبي ســـيِّدي
إنـــا بـــلا ذنـــبٍ نُـــردْ

مـــولاي هـــذي مُهجـــةٌ
مـــن حـــرّ مـــا فيهـــا تُقـــدْ
رُحمــــاك لــــو آســـيتها
وجميــــلُ عطفـــكَ لا يحـــدْ

وتصـف مـا تعانيه وهي على سرير المـرض مـن وجـد وحسرة وشوق إلى لقيا الحبيب، راجيـةً مـنـه أن يعطف عليها، أو يزورها مرة واحدة في العمر على الأقل:

هـــذي فـــتاتك فـــي الســـرير
تـــذوب مـــن وجـــدٍ وحســـرةْ
تهفـــو إلى لقيـــاك ظمـــأى
تســـتقي غـــاديك قطـــرهْ
مـــاذا عـــليك إذا عطفـــت
وزرتـــنا فـــي العمـــر مـــره..

وتتوسـل إليه أن يعود إليها، ويترفق بهـا بعد أن أضحت كبداً حرّى تذوب من فرط الهُيام، قائلة:

يـــا سيِّدي عـــدْ لي فديتك إنها
كـــبدٌ تـــذوب فـــلا تَجُـــرْ وترفَّقِ
يـــا سيدي عُوفيت من هذا الهوى
وضُـــنيْتُ وليذهبْ هواك بما بقي

وحين يرحل حبيبها، ويغيب في الأفق الـبعيد، ينهبها الشوق إليه، فتروح تستعطفه وتـتذلل له ليـرفق بهـا، ويـرحم مهجـتها وأضلاعها التي لم تُقَدُّ من الجليد.. وما يعزيها هـو شـعورها بأنـه قريب منها رغم البحار الواسـعة والصـحارى الشاسـعة التي تفصل بينهما:

تُطـــوى المـــراحلُ بينـــنا
وتغيـــبُ فـــي الأفـــق الـــبعيدْ
وأظـــل بعـــدك يـــا حبيـــبي
نهـــبَ شـــوقٍ مســـتزيد
مـــولاي رفقـــك قـــد قســـوت
ومـــا قســـوتَ عـــلى جـــليد
ولـــئن غـــدوتَ وبينـــنا
بحـــرٌ تـــرامى إثـــر بيـــدْ
فلأنـــت أدنى رغـــم ذا
ك إلـــيَّ مـــن حـــبل الوريـــدْ

وتـرثي حبها العاثر، بعد أن هجر كل حـبيب حبيـبه، ومضـى في دربه، وانصرف لشأنه، كأن شيئاً من هذا الحب لم يكن بالأمس القريب:

قـــد تهاجَـــرْنا كـــأن لـــم
أكُ أو لـــم تـــكُ مـــني
فمضـــى هـــذا لـــدربِ
وانثـــنى ذاك لشـــأنِ

وتـنذر حبيبها الذي قطع حبل المودة بأنها ستنأى عنه، وتذهب إلى غير رجعة، كما يذهـب الطيـف في لمح البصر، وسيبقى هو وحده، يعتصره الندم:

ســـأنأى ســـأذهب لا رجعـــةٌ
تـــرجى لحـــبي ولا أيُّ عَـــوْدَةْ
ســـأذهب كـــالطيف فـــي لمحـــة
ســـأنأى ويـــبقى حبيـــبي وحـــده

لم تُقْصِر الدكتورة عاتكة الخزرجي شعرها على الحب ووصف تباريحه، وعلى الهيام، والوجد والعشق والشوق إلى الأم والوطن والحبيب المهاجر.. بل كان للشعر الصوفي مساحة في دواوينها، فقد اعترفت في قصيدتها (بين يدي الله) بأن لغتها وبيانها أعجز من أن يصف حبها لله، وأنها لم تحب الكون وما فيه من بدائع الصور، إلاَّ لأنه جزء من جمال الحبيب الأعظم:

أحبك لو صحَّ أن الهوى
تترجمه أحرفٌ أو معان
أحبك للحب لو أعربت
عن الحب قافيةٌ أو بيانْ
أحبك رباه فوق الهوى
أيا من به كنتُ والحبُّ كان
جمالك يا رب عم الوجود
فليس لقبح به منْ مكانْ

كما كررت مثل هذه المعاني في قصيدتها (الله) التي صرحت فيها بأن حبها لله قد تنزه عن كل رغبة ورهبة، وأنها خالص لذات الحب:

أحبك فوق الهوى والظنونْ
وفوق الذي يَحْسَبُ العاشقون
هواك هواي أيا عالماً
تقاصرَ عن وصفهِ العاشقون
تملكني جملةً جملةً..
وهان به كلُّ ما لا يهونْ
أحبك للحب لا رغبةً
ولا رهبةَ بئس ما يأفكونْ

وفي قصيدتها (أحبك) تطلب العون من الله كي ينصرها على أولئك الناس الذين يعمهون في غيهم وضلالهم، وتعوذ به من هذا العالم المجنون، كما تطلب منه أن يأخذها إلى كنفه الذي يهفو إليه كل الأتقياء والصالحين:

تباركت ربي أعنّي على
أناسٍ بغيِّهم يَعمهونْ
أعوذُ بك اليوم من عالمٍ
مريضٍ به لوثةٌ من جنونْ
أجرني من الخَلْق خذني إليك
إلى كنفٍ فيه ما يشتهونْ...

كذلك كان للشعر القومي مساحة أخرى في دواوينها، وتأتي قضية فلسطين في الصدارة. تقول في قصيدتها (سيروا إلى الحرب) مستثيرة نخوة العرب وحميتهم وحماستهم، مذكرةً إياهم بأمجادهم الغابرة، وتاريخم البطولي المجيد:

آن الجهادُ بساح المجد يا عربُ
فذي فلسطينُ تدعوكم وتنتحب
أليس عاراً علينا أن نفرّ وذي
ديارنا في يد الشذاذ تنتحب
لا تخفضوا الهام من ذلٍ لشرذمة
سلاحُها الظلم والإرهاق والكذب
ألستم من أناسٍ كان فخرَهُمْ
عونُ الحميم ورعيُ الجار والأدب؟

المرأة ودورها في فن الكتابة وتطور الخط العربي

بقلم:
محمد عيد الخربوطلي

يؤكد الباحثون الذين تخصصوا في دور المرأة، أنه كان لها على مدى التاريخ إسهام بارز ملموس في كل مجالات النشاط البشري، في التعليم والسياسة والحكومة، وأنه لم تكن مهمتها قاصرة على رعاية شؤون بيتها وأمومتها.

... فقد احتلت المرأة مكانة متميزة في المجتمع العربي بما أبدعته من فنون التأليف، وبما أحرزته من تفوق في فن الكتابة والخط، وكثير من النساء حصلن على المعارف وأصبحن عالمات شهيرات، ومنهن من نسخن المصاحف والكتب من كل نوع بما فيها الأدب والشعر والحديث بطريقة بارعة غاية في الجمال، وكثيرا ما اعتمد عليهن رجال الحكم في كتابة نصوص المعاهدات السياسية بسبب قدراتهن الفائقة في الكتابة.

فمن المعروف عند ظهور الإسلام لم يكن يعرف الكتابة في قبيلة قريش غير سبعة عشر رجلا وثلاث نساء، فنزل القرآن الكريم بالعلم وحض عليه ودعا الرسول الكريم للعلم وأمر المتعلمين أن يعلموا غيرهم مهما كلفهم ذلك من مشقة، وكذلك أمر النساء بالتعليم كالرجال وقد كلف شفاء بنت عبد الله العدوية بأن تعلم زوجته حفصة الكتابة، وكذلك اشترط الرسول الكريم لافتداء أسرى قريش بعد غزوة بدر أن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة.

وانتشـــر العلم وكثر المؤلفون حتى أن بعضـــهم تجاوزت مؤلفاته أربعمائة كتاب مثل الكـــندي والجـــاحظ والمدائـــني وابـــن عربي والسيوطي.

وفي نفس الوقت كثرت أنواع الخطوط واحتـــلت مكانـــة رفيقة ولعبت دورا مهما في المجتمع لعدة أسباب.. منها:

١- أن الديـــن شجع على القراءة والكتابة منذ ظهوره.
٢- أن الخط أصبح أداة سمية ودينية.
٣- أن الخط العربي كان جميلاً وقابلاً للتطور.
٤- أن الـــدول الإســـلامية احتضنت الخطاطين وشجعتهم.
٥- أن الخطاطين كانوا عباقرة موهوبين.

فدخـــل الخـــط العربي في كل مجالات الحيـــاة، فكتـــبت المصاحف والمؤلفات العلمية والديـــنية والأدبيـــة بخطـــوط جميلة، وازدانت المســـاجد والمـــنابر والقصـــور والحمامـــات والطـــنافس والوســـائد والآلات الموســـيقية والســـيوف والخوذات، وحتى الأجهزة العلمية مثل الأسطرلاب والمجسمات الجغرافية بأشكال جميـــلة من الخطوط. وهؤلاء الخطاطون الذين أبدعوا روائع اكتسبت شهرة عالمية لم يكونوا كلهم من الرجال، إنما لعبت المرأة دوراً بارزاً فـــي ازدهـــار الثقافة العربية فقد كانت القراءة والكـــتابة عـــاملا مساعدا على إكساب النساء مهـــارات ثقافيـــة متـــنوعة أهلـــتهن ليصبحن عالمات وكاتبات وشاعرات، كما أهلتهن لتولي وظائف مرموقة في الدولة، وللعمل في دواوين الخـــلفاء وشغل الوظائف العامة، وقد أشار إلى ذلـــك الجـــاحظ وغيره، ومنهن خالصة وعتبة وظـــلوم وحمدونـــة فكـــن يؤديـــن عملهن في الدواوين على أكمل وجه دون اعتراض، ونرى - ســـت نســـيم - فـــي آخـــر العصر العباسي قـــد لعـــبت دورا بـــارزا في عهد الناصر لدين الله، فقـــد علمها الخليفة الخط إلى درجة أنها كـــانت تكتب بخط جميل يقارب خطه، وعندما تقدمت به السن وضعف بصره أمرها بأن ترد عـــلى كـــل ما يصله من مكاتبات، وكانت أهلاً لذلك.

وعـــلّم بعـــض الشعراء النساء الكتابة لمســـاعدتهم فجارية ابي العتاهية كانت تنسخ شـــعره بطريقة رائعة ، أما الحافظ المؤرخ ابن الفرات الذي ألف مائة مجلد في تفسير القرآن ومثلها في التاريخ كانت عنده جارية تراجع ما نسخه من الكتب الأخرى للتأكد من عدم وقوع أي خطـــأ فـــي الـــنقل، وتلك مهمة تحتاج إلى درجة عالية من التعليم والدقة ، وخبرة واسعة في المعرفة.

وذاعت شهرة - النضّار - في قصور الخـــلفاء فـــي الأندلس في عهد الحكم بن عبد الناصـــر الأموي، فهي لم تكن شاعرة فحسب. بـــل كانت عالمة في الرياضيات واشتغلت بكل العلوم ومارست الخط.

وهذه – لبنى – كاتبة المستنصر كانت شاعرة ونبغت في النحو والبلاغة والرياضيات، وأبدعت مجموعة من الأعمال الخطية الرائعة.

وكاتبة الخليفة الأندلسي الناصر لدين الله – مزنة – كانت من أشهر الخطاطين في عصرها.

وهكذا نرى أن كثيراً من النساء قد نبغن في فن الخط، وصارت لهن مكانة مرموقة مثل – فاطمة بنت الحسن الأقرع – التي كانت تكتب بالخط المنسوب على طريقة الخطاط العظيم ابن البواب، والتي قلدها الخطاطون في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ويروى عنه أنها كتبت رسالة لمحمد بن منصور الكندي وزير طغرك بك أول وزراء السلاجقة، فانبهر بفصاحتها وأسلوب كتابتها فخلع عليها ألف دينار، وعندما أرسل الخليفة المقتدر رسالة إلى الأمبراطور البيزنطي يطلب الهدنة بين بيزنطة وبغداد طلب إلى فاطمة أن تكتبها بخطها الجميل كما ذكر ياقوت الحموي في معجم الأدباء.

نساء عالمات وخطاطات

وبمرور الزمن أزداد اهتمام النساء بنسخ الكتب الدينية والعلمية والمجموعات الشعرية في مخطوطات تميزت بالدقة والجمال، فهذه – فاطمة بنت عبد القادر – المعروفة ببنت قُرَيمُزان، كانت عالمة ورئيسة لمدرسة في حلب ونسخت بيدها عدداً كبيراً من الكتب، أما – سيدة بنت عبد الغني العبدرية – فكانت من النساء العالمات في غرناطة بالأندلس، نسخت بخطها كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، وهذه – الرضا بنت الفتح – الكاتبة الشهيرة في بغداد، اشتهرت بكثرة ما ألفت ونسخت من الكتب، قال عنها المؤرخ الصفدي قد رأيت نسخة من ديوان أبن الحجاج بخطها، واشتهرت في بغداد زينب الشهيرة بشهدة بنت الأبري فكانت مفخرة النساء ومسندة العراق، فقد كانت شيخة ومحدثة وكتبت خطوطاً جميلة على طريقة فاطمة بنت الأقرع، ولم يكن أحد يدانيها في عصرها وقد أخذت الخط عن محمد بن عبد الملك تلميذ ابن البواب وعنها أخذ الخط أمين الدين ياقوت المستعصمي كما ذكر القلقشندي في صبح الأعشى ولما توفيت أشرف الخليفة بنفسه على دفنها وأكد على ذلك الصفدي في كتابة الوافي بالوفيات.

تفوق النساء في نسخ المصاحف

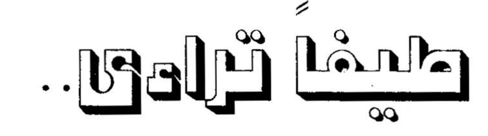
عرفت كثير من النساء بخطوطهن الجميلة في شتى أرجاء العالم العربي والإسلامي، من الأندلس والهند إلى الشام

والعـراق، وكـن يتنافسن في كتابة مصاحف رائعـة الجمـال، ويذكر المؤرخون أن الأحياء الشـرقية مـن قرطبة كان فيها مائة وسبعون أمرأة ينسخن المصاحف بالخط الكوفي كما ذكر محمـد كـرد عـلي فـي كتابه غابر الأندلس وحاضـرها، ومـنهن – عائشـة بـنت أحمد القرطـبية – وكـانت شاعرة مجيدة وخطاطة جيـدة، كمـا كانت من عشاق الكتب، وجمعت عدداً كبيراً منها، وكان الملوك يحترمونها.

أما في تونس وخلال حكم الصنهاجيين عـرفت – درّة الكاتـبة – فعمـلت في البلاط الصـنهاجي وحققـت شـهرة واسـعة، ومن أعمالهـا التي لا نظير لها – مصحف الحاضنة – وفـي القيروان عرفت – فاطمة الحاضنة – الـتي أحتضـنت باديس بن المنصور وعندما استلم الحكم ولده المعز أعلى من شأنها ورفع منـزلـتها، وأوقفـت عـلى مسجد عقبة في القيـروان كتبا نفيسة ونادرة ومصاحف مذهبة مـازال بعضها موجود ومنها مصحف مكتوب بخـط درة. واحـتل الخـط مكانـه رفيعة في المجـتمع فـي العصـر العثماني فالعثمانيون والفـرس جعلوا للخط العربي مذاقاً فنياً فصار لـلحرف صـدى مسـموعاً لجمالـه ولجلاله وصوره الرائعة فتنافس خطاطوا كل مدينة بما أبدعـته أقلامهـم وبرعت نساء كثيرات بالخط الجميـل مثل –عبرت وزاهده وسلمى خانوم – والشـريفة عائشة حتى اشتهرت بعض أمهات السلاطين بالخط ، فقد نسخت – درة خانوم – أم السـلطان محمـود خـان مصحفاً موجود بالمكتبة المحمودية في المدينة المنورة اليوم، ولعـل أروع مـا كتبـته نساء العهد العثماني مصـحف نسـخته الشريفة الحافظة – زليخة السـعدي – ابنة عبد الكريم زاده، الصفحتان الأوليـان مـنه مليئتان بزخارف نباتية رائعة مـلونة ومذهـبة، وباقي الصفحات يحيط بها إطـار عريض مذهب محاط بخط أزرق دقيق، وفواصـل الآيات أشكال مستديرة مذهبة مليئة بالـزخارف، وأسماء السور مذهبة ، وللأشكال الزخـرفية رؤوس وذيول ملونة تشبه العناقيد الزهـرية، والمصحف مجلد بجلد مذهب وهو موجود اليوم في مكتبة خاصة في مدينة جدة.

وأخيـراً نعتقد أنه يوجد رابطة روحية بيـن النساء وحروف الهجاء ،فقد وصف أحد الأدبـاء إحـدى الخطاطـات بقوله: إن مدادها يشـبه سـواد شـعرها، وورقها يشبه بشرة وجهـهـا الخمـري، وقلمها يشبه أحد أصابعها الدقيقة، وسكينها يشبه السيف القاطع لنظراتها الساحرة.

وبعضـهم شبه حواجب المرأة الجميلة بحرف النون العربي، وعينها بالعين، ووجنتها بـالواو، وفمهـا بـالميم، وشـعرها المجدول بالشـين، وكانت جودة الخط أحد مظاهر جمال المـرأة، فقيل: إن المرأة المحظوظة هي التي تجمـع بيـن جمـال الجسـم والوجه وجمال الشخصية والخط.


طيفاً تراءى..

شعر: محمود يونس منصور

جـاءت تسائل عن أوزان أشعاري
كالبدر تشرق في قلبي وأغواري

تخالها نجمةً في الكون عالقةً
وقد أباحت برغم الصمت أسراري

ما عدت أشرحه في عينها ظهرت
تبسّم الورد في بستان أزهاري

وحسنها عصفت أنسامه فغدت
هذي الجوانح قد تفترّ بالنار

وأبرقت سببا ما عدتّ أعرفه
تأتي على قدري في كلّ أطواري

أحضرت ذاكرتي حيناً لأنشدها
شعراً.. فضاعت بها حبّاتُ أفكاري

فقلت مبتسماً ما تحفظين هُنا
أليس عندك من شعر لثرثار

* * *







فأطـــلقت آهٍ إذ قـــالت عـــلى عجـــل

مـــا عـــدت أذكـــر مـــا تعـــنيه يـــا جـــاري

وأطـــرقت خجـــلاً مـــن فـــرط صـــبوتها

ألا توافـــق بعـــض الصـــمت أشـــهاري

قـــد خانهـــا الدمـــع حيـــن أطـــل فـــي ولـــه

إليـــك أشـــكو تـــباريح الهـــوى الســـاري

فعـــدت أجمـــع بعضـــاً مـــن دفاتـــرها

وأرســـم الشـــوق فـــي ميـــناء إصـــراري

وأنشـــد الشـــعر عـــلي ألـــتقيها بـــه

لعـــلها رجعـــت يومـــاً إلى داري

*   *   *

تـــراقص القـــلب لمـــا إن أتـــت فصـــبا

يحـــلق الأفـــق فـــي شـــوق وإكـــباري

ويلـــثم العطـــر ممـــزوجاً بطلـــتها

تخالهـــا الشـــمس إن تـــبدو لســـماري

ورحـــت مـــن صـــحوة جـــالت بذاكـــرتي

أســـابق الـــريح فـــي أحـــلامِ طيـــاري







أراقــص الــنجم حيــنا ثــم أقطفهــا

وأزرع الأفــق فــي شــوق لمشــواري

وأنشــر العطــر فــي حــبات نرجســة

لعــلها نهــلت فــي الخــد مــن ثــاري

وأســكر القــلب لا أرنــو لصــحوته

لأنــه الحــلم فــي ميعــاد إفطــاري

قــد عدتهــا زمــناً فــي القــلب حاضــرةً

وغيــب الشــوق مــا تــلقاه أنظــاري

ورحــت مــن همســة صــارت تــرددها

مــا بــال عيــنك قــد فاضــت بمــدراري

واســتوقفتني فاصــغت وهــي حاضــرة

القــلب يشــكو ودمــع العيــن أخــباري

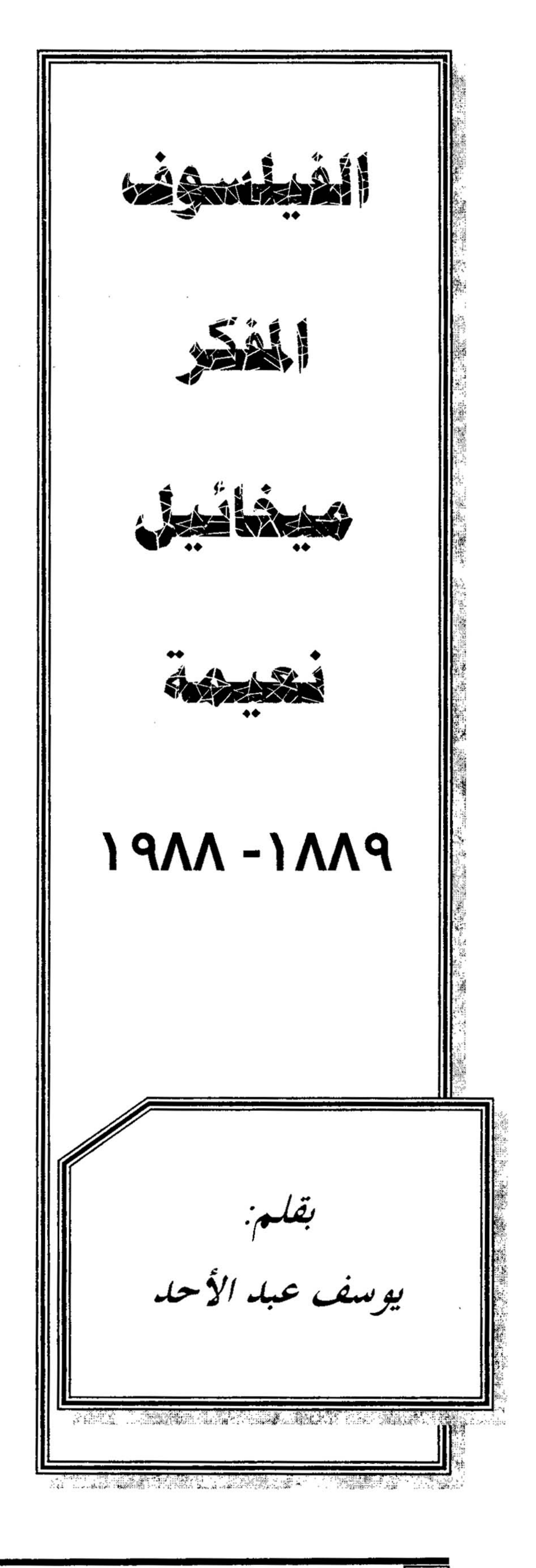
لا أســتطيع وداعــاً أنــت حاضــره

رفقــاً بقلــبي إذا مــا صــاغ أعــذاري

مــا عــدت أنظــرها فــي لحظــة أتــرى

قــد كــان طيفــاً تــراءى بيــن أفكــاري



يعتبر الفيلسوف ميخائيل نعيمة مدرسة أدبية وروحية وإنسانية وفلسفية قائمة بذاتها، وهو من أبرز الكتّاب والأدباء في الوطن العربي والمهاجر.

وهو أحد مؤسسي (الرابطة القلمية) في المهجر الشمالي عام ١٩٢٠، منح جائزة رئيس الجمهورية اللبنانية السنوية لعام ١٩٦١، وحصل على دكتوراه فخرية من جامعة واشنطن في مدينة (سياتل) وكرّمته حكومة لبنان في احتفال خاص عام ١٩٧٨، وحصل على جائزة مدينة بغداد التي تمنحها الأونيسكو لعام ١٩٨٤، وحصل على جائزة جواد بولس للأدب عام ١٩٨٨.

سيرة حياته

ولد ميخائيل نعيمة في بلدة (بسكنتا) لبنان بتاريخ ١٧ تشرين الأول ١٨٨٩، والده يوسف نعيمة ووالدته لطيفة.

تلقى دراسته الأولى في مدرسة بسكنتا وكان عمره لا يتجاوز السادسة حيث قضى فيها أربع سنوات، ونظراً لتفوقه اختارته إدارة المدرسة لمتابعة دراسته على نفقتها في روسيا.

وفي عام ١٩٠٦ كان قد بلغ السابعة عشرة من عمره سافر إلى (بولتافا) في أوكرانيا والتحق بالسمنار اللاهوتي ودرس في كليتها خمس سنوات ثم عاد إلى لبنان والتقى بأخيه أديب، العائد من أميركا واتفقا على السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩١١ إلى مدينة (والا والا) من ولاية واشنطن، والتحق بجامعة واشنطن عام ١٩١٢ ودرس فيها الحقوق والآداب وأمضى فيها مدة أربع سنوات وحصل على شهادتي الأدب والحقوق عام ١٩١٦.

لم يعمل في مهنة المحاماة لأنه كان يميل إلى الأدب أكثر، ثم بدأ بنشر مقالاته في مجلة (الفنون) لصاحبها الشاعر نسيب

عريضة وتوطدت بينهما صداقة وصلات أدبية وثيقة.

وفي أيار عام ١٩١٨ سيق إلى الجندية في الجيش الأمريكي وأرسل إلى الجبهة الفرنسية - الألمانية، ثم سرّح عام ١٩١٩ وعاد إلى نيويورك وعمل في محل تجاري. وخلال إقامته في المهجر توطدت صلاته مع جبران خليل جبران ونسيب عريضة وإيليا أبي ماضي وغيرهم من الأدباء الذي ألّفوا (الرابطة القلمية). وأنتج نعيمة كتابين فقط الأول (الآباء والبنون) وطبع في نيويورك عام ١٩١٧ عالج فيه لغة المسرح إذ جعل الحوار بالفصحى للمتعلمين، وبالعامية لغير المتعلمين فكانت المسرحية فتحاً في الفن المسرحي في المهجر.

أما كتابه الثاني النقدي (الغربال) فقد طبع في مصر عام ١٩٢٣ بناءً على طلب من محي الدين رضا بعث إليه برسالة في حزيران ١٨٩٩ أبدى فيها إعجابه بكتاباته وطلب منه إرسال مجموعة من مقالاته النقدية لنشرها في كتاب، فلبّى نعيمة الدعوة، وأحدث صدوره آنذاك ثورة أدبية في الأوساط الثقافية والاجتماعية، وكتب مقدمته عباس محمود العقاد.

عودة نعيمة من المهجر الى لبنان

عاد نعيمة من ميناء نيويورك في التاسع عشر من إبريل سنة ١٩٣٢ ووصل بيروت في التاسع من أيار بعد أن قضى في المهجر إحدى وعشرين سنة.

استقبلت (بسكنتا) ابنها ميخائيل استقبالاً حاراً وأقيمت له عدة حفلات تكريمية.

كان في قريته يساعد أخاه أحياناً في فلاحة الأرض وزرعها وريّها وفي رعي البقرات.

ويروي في مذكراته نادرة طريفة عن صحفي سوري جاء خصيصاً ليقابل ميخائيل نعيمة، والتقى به في الطريق خلف بقراته، فسأله عن بيت الأستاذ ميخائيل وصومعته وهل بإمكانه أن يقابله، وكم كانت دهشة الصحفي حين عرف أن الذي يكلمه هو ميخائيل نعيمة، فأزال دهشته بقوله:

"ما أظنك تخجل بالحليب واللبن والجبن والزبدة والقشدة على مائدتك.. فكيف تخجل بأن تسوس البقرة التي منها هذه البركات".

كيف تأسست الرابطة القلمية في المهجر الشمالي

أنشأ عبد المسيح حداد جريدة (السائح) عام ١٩١٢ وجعلها منبراً للنشر لزملائه بعد توقف مجلة (الفنون) التي أنشأها نسيب عريضة، وهكذا تألفت عصبة أدبية في قلب العالم الأمريكي تنحو نحو التجديد والتحرر والانطلاق.

ولما أحسّ أفرادها بوحدة الهدف اجتمعوا في بيت الأستاذ (عبد المسيح حداد) مساء العشرين من نيسان سنة ١٩٢٠ وقرروا تأسيس رابطة تضمهم وتوحدهم في سبيل المحافظة على اللغة العربية وآدابها في المهجر الشمالي.

وفي ١٩٢٠/٤/٢٨ أصبحت حقيقة واقعة إذ اجتمعوا في منزل جبران خليل جبران وقرروا إشهار الجمعية إلى حيّز الوجود وتسميتها (الرابطة القلمية) وكان الحاضرون في هذه الجلسة:

١- جبران خليل جبران.
٢- ميخائيل نعيمة.
٣- عبد المسيح حداد.
٤- ندره حداد.
٥- الياس عطا الله.
٦- وليم كاتسفليس.
٧- نسيب عريضة.
٨- رشيد أيوب.

٩- وديع باحوط.
١٠- أيليا أبو ماضي.

انتخب الحضور جبران عميداً لها بالإجماع وميخائيل نعيمة مستشاراً ووليم كاتسفليس أميناً للصندوق وانضم إليهم إيليا أبو ماضي ووديع باحوط، وأوكلوا إلى ميخائيل نعيمة أمر تنظيم قانون الرابطة، فنظمه ودعا في مقدمة قانون الرابطة إلى التجديد والخروج من الجمود والتقليد قائلاً:

"إن هذه الروح الجديدة ترمي إلى الخروج بآدابنا من دور الجمود والتقليد إلى دور الابتكار في جميع الأساليب والمعاني"

وبعد أن نظمت الرابطة بدأت كتابات أعضائها تظهر في جريدة (السائح) ثم جمعت هذه المقالات وصدرت في كتاب باسم (مجموعة الرابطة القلمية) سنة ١٩٢١.

وقد وضع شعراء الرابطة القلمية، والعصبة الأندلسية في المهجر الجنوبي تعريفاً متقارباً لفن الشعر يخلع على الشاعر هالة من القداسة والنبوة فقال ابو ماضي في ديوانه (الجداول):

"إنما نحن معشر الشعراء
يتجلى سر النبوة فينا"

وقال الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري) في مقدمة ديوانه عن الشعر:

"إنه أرفع الفنون وقد يسمو حتى يداني مرتبة النبوة".

وبقيت الرابطة مستمرة بأعضائها العشرة حوالي إحدى عشرة سنة من عام ١٩٢٠ إلى ١٩٣١ ثم انطفأت بموت عميدها جبران خليل جبران ولحقه رشيد أيوب ونسيب عريضة ثم ندره حداد فوليم كاتسفليس فإيليا أبي ماضي.

مهرجان تكريم ميخائيل نعيمة عام ١٩٧٨

تنادى عدد من أدباء لبنان إلى الاحتفال بميخائيل نعيمة وشكّلت لجنة تحضيرية لتكريمه.

وقد شارف على أبواب التسعين من عمره، وقد وقع الاختيار على مؤسس الندوة اللبنانية الأستاذ ميشال أسمر أميناً عاماً للجنة التحضيرية ليتولى الترتيبات.

بدأ المهرجان في السابع من أيار ١٩٧٨ واستمر حتى ١٤ منه، وجرى الافتتاح رسمياً في القاعة الزجاجية التابعة للمجلس الوطني للسياحة وحضر الوزير أسعد رزق ممثلاً لرئيس الجمهورية الياس سركيس آنذاك وشارك فيه عدد من المستشرقين وأساتذة الأدب والفكر في لبنان وفرنسا وإيطاليا وإنكلترا وهولندا والمملكة العربية السعودية وسورية ومصر وتونس والجزائر والمغرب والكويت والأردن والعراق والسودان.

وألقيت محاضرات في مختلف الجامعات في لبنان وعقدت ندوات في طرابلس وزحلة وجونية.

ومن المشاركين في هذا المهرجان ستة من المستشرقين هم: (روجيه ارنالدز وكلود أودبير من فرنسا وفرانشيسكو غبريالي وأمبرتو ريتزيتانو من أيطاليا ومالكولم لايونز من إنكلترا ونيلند من هولندا).

وجاء في محاضرة المفكر التونسي محجوب بن ميلاد: "إن الحديث عن نعيمة هو حديث صعب ومتشعب ولذلك يضطرنا إلى الغوص في قضايا الفن والعلم والفلسفة والدين والمجتمع والسياسة والتربية والثقافة والحضارة وربط بين هذه القضايا ربطاً محكماً وواضحاً".

ومما جاء في كلمة وزير التربية أسعد رزق: "لسنا في معرض تكريمه إننا به نتكرم، كتابته ليست هواية، هي حياته كلها والمدهش في كتابة نعيمة أنها تصالحنا مع ذاتنا والناس والكون".

وقال الدكتور سليم الحص بمناسبة مهرجان التكريم: "إن مهرجان ميخائيل نعيمة يختلف بل يعلو عن سائر المهرجانات لأنه مهرجان الفكر والروح، والفكر والروح

هما بعض الأعمدة التي بني عليها صرح لبنان".

وحيّاه الشاعر رياض معلوف بقصيدة جاء فيها:

"نعمة أنت يا أخي أم نعيمه
قلم مبدع وروح كريمهْ
أيه – مردادك – العميق المعاني
والمعاني طريفة وحكيمه
طي – همس الجفون– سحر خفي
فيه أسرار شاعر مكتومه
لك شعر عن الخريف لطيف
لطف غيماته.. ولطف النسيمة"

وعندما سئل ميخائيل نعيمه عن انطباعه وشعوره في هذا التكريم قال:

"أعتبر تكريمي في هذه الأحوال تكريماً لأكثر من شخص، إنه تكريم لما يمثله هذا الشخص من قيم فكرية وروحية، إنه تكريم للكلمة التي هي في نظري العجيبه الكبرى في حياة الإنسان..

أنا كاهن في هيكل الكلمة أرجو أن أكون قد أحسنت الكهانة.."

رسائل نعيمة الأدبية

بدأت فكرة جمع رسائله إلى أصدقائه تمهيداً لإصدارها في مجلد يضم المختار منها في عام ١٩٦٩، كان قد بعث برسالة إلى صديقه الأديب (نجاتي صدقي) ونشرتها مجلة الأديب في عدد يناير ١٩٦٩ جاء فيها:

"إني أجمع ما يتيسر لي جمعه من رسائلي الكثيرة المشتتة بقصد نشرها في مجلد خاص وسأكون ممتناً لك إذا أنت وافيتني بما لديك منها" (ميخائيل نعيمة)

قرأت الرسالة وأخذت أنقب في أرشيفي وأجمع كل ما يقع تحت يدي من رسائل منشورة في الصحف والمجلات ولدى الأصدقاء، وكنت أصور نسخاً منها وأبعث بها إليه تباعاً، فتلقيت منه على أثرها بضع رسائل يشكرني فيها على اهتمامي بجمع رسائله وهذه إحدى الرسائل وتاريخها ١٩٦٩/٩/٥ قال فيها:

"الصديق العزيز يوسف عبد الأحد

ما بقيت أدري كيف أشكر لك اهتمامك بجمع ما تيسر لك جمعه من رسائلي، وكل ما أرجوه هو أن يتجمع لديّ من تلك الرسائل ما يملأ مجلداً وأن أقدّم لك نسخة من ذلك المجلد عساه يعبّر ولو بعض التعبير عن عظيم امتناني لك.

وصلتني رسالتاك الأخيرتان تاريخ ٨ و ٢٧ آب فالشكر لك والسلام عليك من المخلص ميخائيل نعيمة"

وظهر مجلد الرسائل في عام ١٩٧٤ وضمّ بين دفّتيه حوالي ألف رسالة تحدّث فيها عن أصدقائه وكشف فيها جوانب عدّة من حياته.

إن مجموع هذه الرسائل يشكل مصادر موثوقة تستقى منها المعلومات لدارسي أدب نعيمة ومما لا شكّ فيه أن أدب الرسائل أصبح له أهميته وقيمته في سائر الآداب العالمية وصار يلقى عناية خاصة من دارسي الأدب.

لقاء نعيمة والشاعر القروى لأول مرّة

التقى الأديبان العملاقان ميخائيل نعيمة والشاعر القروي رشيد سليم الخوري لأوّل مرّة في حياتهما يوم الخميس في ٢٧ آب ١٩٨١ بعد ٦٤ سنة من تأسيس الرابطة القلمية والعصبة الأندلسية، التقيا في بسكنتا، وكان صاحب الفكرة الأستاذ فؤاد الزغبي صديق الطرفين، وكان اللقاء في منزل (كتانه) ثم انتقلا إلى بيت نعيمه وكان بينهما عناق طويل استهله القروي بقوله: "ميخائيل.. ميخائيل.. وأجابه نعيمة بترحيب حار: أهلاً بالشاعر القروي في بيتي، وتحلّق حولهم بسرور وفرح كل من سليمان كتانه وفؤاد

الزغبي والقاضي جورج غانم ومي ابنه أخ شقيق نعيمه وهنري زغيب".

كيف لقّب بناسك الشخروب

إن لقب (ناسك الشخروب) الذي عرف بـه نعيمه بعد عودته من أمريكا كان أول من أطلقه عليه الكاتب اللبناني توفيق يوسف عواد منشور في تحقيق صحفي في صحيفة (البرق) اللبنانية سنة ١٩٣٢ وردّ عليه نعيمة بقوله: إنه ليس ناسكاً بالفعل "بل إن بيتي - مثل قلبي - مفتوح للناس صيف شتاء.. وليل نهار.."

أعمال نعيمه بالإنكليزية

نشر ميخائيل نعيمه كتاب (مرداد) باللغة الإنكليزية عام ١٩٤٨ ثم ترجمه إلى العربية.

عالج نعيمه في مؤلفه القضية الأبدية بالنسبة للإنسان من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟

وتتلخص رسالة مرداد في سعيه الدؤوب إلى مساعدة الإنسان على اكتشاف ذاته، إذ باكتشاف هذه الذات يكتشف الله ويتحرر الإنسان من الثنائية الأنا وانعدام الأنا.

ويرى بعض النقاد أن نعيمه في كتابه هذا - مثل جبران في كتابه (النبي) متأثر بكتاب (نيتشه) (هكذا تكلم زرادشت).

ولنعيمة عدة قصائد بالإنكليزية ومخطوطة عن (يسوع) غير منشوره.

عقيدة نعيمة في التقمص

إن عقيدة تناسخ الأرواح أو التقمص تظهر بوضوح في روايته المسماة (لقاء) وهو يؤمن بأن الإنسان يعود إلى هذه الأرض في دورات متعاقبة يمرّ فيها من حياة إلى أخرى.

وقد تطول هذه العودات إلى سبعة عقود أو إلى سبعة ملايين من العقود وحجته أن التكفير عن الخطايا لا يستطاع في أثناء حياة واحدة، لذلك يجب التكرار والعودة من حياة إلى حياة ليتمكن الإنسان من تطهير نفسه فيتحد مع الله..

وفاته

توفي ميخائيل نعيمة في الساعة العاشرة والدقيقة ٢٢ من ليلة ٢٨ شباط ١٩٨٨ عن ٩٩ عاماً، وكان في مطلع الشهر نفسه قد حصل على جائزة جواد بولس للآداب، وفي تعليقه على الجائزة قال نعيمه: "المال هو أسوأ عدو للإنسان.."

من أقوال نعيمه قبل وفاته

"امهلني قليلاً بعد يا قلمي، قليلا وترتاح مني وأرتاح منك..

امهلني ففي السراج ما تزال بقية من الزيت وفي الدواة بقية من المداد وقبل أن تستل الشمس نورها من عيني فتشرق ولا أراها، وتغرب لا تراني.."

نصب لنعيمه في الشخروب

أُقيم في بسكنتا بتاريخ ١٩٩٩/٩/٩ (مهرجان نعيمه) برعاية الرئيس إميل لحود الذي أقامته عائلة نعيمه ولجنة التراث بالاشتراك مع بلدية بسكنتا، تمّ خلاله إزاحة الستار عن نصب ضخم لميخائيل نعيمه نحت في قلب الصخر في الشخروب.

بلغ ارتفاع النصب ثلاثة أمتار وربع المتر، وعرضه متران ونصف المتر.

جرى الاحتفال في قاعة كنيسة مار يوسف، وألقى كلمة الافتتاح رئيس البلدية جورج غانم، وتضمّن البرنامج موسيقى وعرض فيلم وثائقي عن نعيمه وكلمة بصوته.

مؤلفاته

المسرحيات

١-الآبــاء والبــنون - نيويورك مطبعة مجلة الفنون ١٩١٧.

٢-أيوب - بيروت دار صادر ١٩٦٣.

٣-يا ابن آدم - بيروت دار صادر ١٩٦٩.

روايات

٤-لقــاء - بيــروت دار صادر ١٩٤٦، كتبها بالأصل بالإنكليزية.

٥-مرداد - بيروت مؤسسة نوفل كتبه بالأصل بالإنكليزية ١٩٥٢.

٦-مذكــرات الأرقــش - دار صــار بيــروت ١٩٤٩ وصــدرت بالإنكــليزية بعــنوان (مذكرات روح تائهة) ١٩٥٢.

٧-اليوم الأخير - دار صادر بيروت ١٩٦٣.

قصص

٨-كان ما كان - دار صادر بيروت ١٩٣٧.

٩-أكابر - دار صادر بيروت ١٩٥٦.

١٠- أبو بطه - دار صادر بيروت ١٩٥٨.

شعر

١١- همــس الجفون - مطابع صادر وريحاني ١٩٤٣.

١٢-نجــوى الغروب - مؤسسة نوفل بيروت ١٩٧٣.

سير

١٣-جــبران خــليل جبران - حياته موته - بيــروت مطــبعة لسان الحال ١٩٣٤ ثم تــرجمها إلى الإنكــليزية وصــدرت في نيويورك ١٩٥٠.

١٤-ســبعون حكايــة عمــر في ٣ أجزاء - بيــروت دار صــادر ١٩٥٩- ١٩٦٠ (سيرة المؤلف الذاتية).

مقالات

١٥-الغــربال - القاهــرة، المطبعة العصرية ١٩٢٣.

١٦-زاد المعاد، مجموعة من الخطب، القاهرة مطبعة المقتطف ١٩٣٦.

١٧-المــراحل - ســياحات في ظواهر الحياة وبواطنها - بيروت مطبعة صادر ١٩٢٣ .

١٨-البيادر - القاهرة دار المعارف ١٩٤٥.

١٩-الأوثان - مطبعة صادر وريحاني بيروت ١٩٤٦.

٢٠-كــرم على درب - القاهرة دار المعارف ١٩٤٦.

٢١-صوت العالم ومقالات أخرى، القاهرة دار المعارف ١٩٤٨.

٢٢-الــنور والديجور - بيروت مكتبة صادر ١٩٥٠.

٢٣-فــي مهــب الــريح - دار صادر بيروت ١٩٥٣.

٢٤-دروب - بيروت دار صادر ١٩٥٤.

٢٥-أبعد من موسكو ومن واشنطن - بيروت دار صادر ١٩٥٧.

٢٦-هوامش - دار صادر بيروت ١٩٦٥.

٢٧-في الغربال الجديد - بيروت ١٩٧١.

٢٨-أحــاديث مع الصحافة - مؤسسة بدران ١٩٧٢.

٢٩-من وحي المسيح - بيروت مؤسسة نوفل ١٩٧٤.

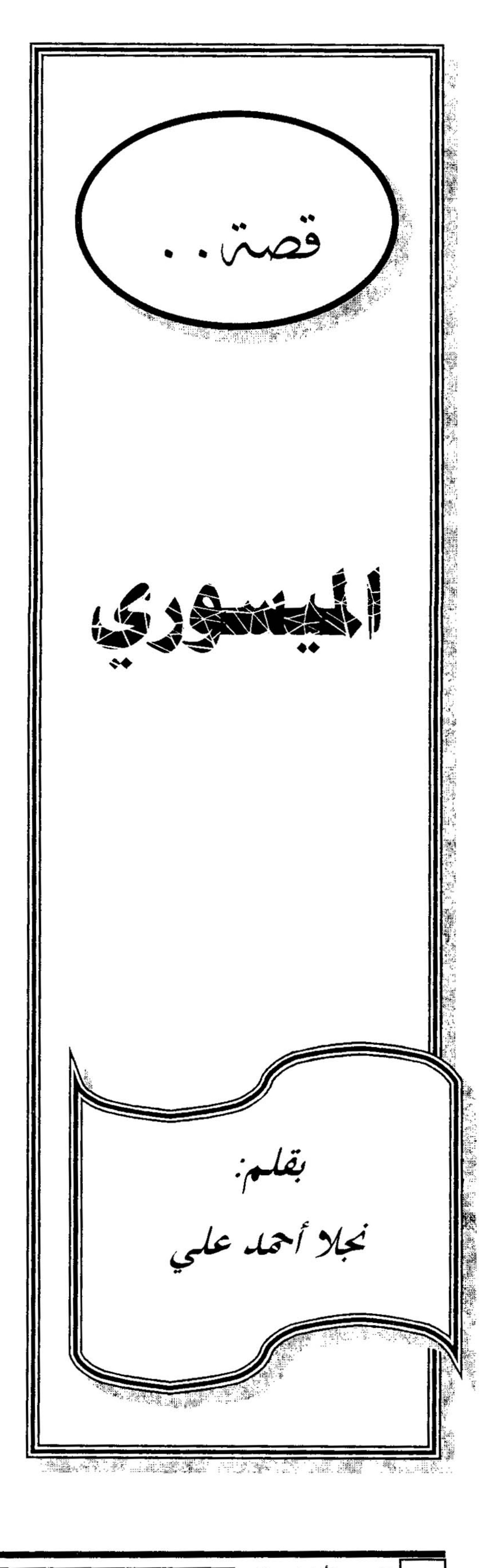
٣٠-رسائل - بيروت ١٩٧٤.

٣١-ومضات - مؤسسة نوفل ١٩٧٧.

٣٢-مخــتارات مقــالات متفرقة - دار النهار بيروت ١٩٧١.

٣٣-المجموعة الكاملة ٨ مجلدات - دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٤.

٣٤-محاضــرة في معهد الدراسات الشرقية - جامعــة القديس يوسف نشرت في جريدة النهار ١٩٧٤/٤/٣٠.



نهايةٌ لا بدّ منها:

قبلَ أن يُلقمَ الرجل نفسهُ للبحر، متذبذباً بين الزّبد الفائر وكُتل الصخر، طافياً بوجه مُجهد، ولحية متلاطمة الأذيال..

أدركَ السرّ، ووعى المحنة. وحينَ لوّعهُ الاكتشاف، وأعطبتهُ الحيرة، فقدَ الصبر.. فالسرّ مرير، والبوح أمرّ، ولولا ذلك.. ما أضحت جثّة الرجل عائمةً في اليمّ، بانتظار شبكة صيد منحوسة.

توسّطٌ لا بدّ منهُ:

في خَلوته السرمديّة، كانَ العالمُ النّابهُ يغزلُ من شغفه الجمّ بالمعرفة دعاءات وابتهالات، تتشفّع لهُ عندَ الباري لتدومَ فطنتهُ، ويفلح سعيُهُ في كشف الستر عن المخبوء والمتواري والمموّه في علوم الأرض والسماء، وفي صولات الطبّ وجولاته. فيقول:

(اللهمّ زدني قرباً من تخومك، وغرفاً من علومك، قني من الخطل، واعصمني من الزلل، ولا تجعلني من الغافلين).

وبعدَ الدّعاء، يستبدل الرجل كسوتهُ الوحيدة بالصوف الخشن، يقطع صيلاتهُ بما حولهُ معتكفاً في صومعته.

وفي وحدتها الباردة، كانت الزوجة تكابد هواجسها المرّة، تحرق أحزانها ومخاوفها في لحظة ضراعة لاهفة، آنَ ترفعُ يديها ومواجدها إلى السماء قائلة:

(ربيّ.. جمّلنا بستركَ، واشملنا بعفوكَ، وامنن علينا بالرأفة، وحصّن بناتنا بالعفّة).

وبعدَ المناجاة، تتخفف المرأة من أحمالها الجسيمة، فتغدو بخفّة الريشة، تسرع إلى بناتها الثلاثة، فتخلع عليهنّ الحجب والأقمشة والمعاطف، لتقيهنّ النظرات الحاسدة، وشبق العيون النهمة.

وفي الطرف الأخير من الثالوث، يصارعُ رجلٌ في عقده السابع صبابات الهوى، وشرارةٌ من رغبةٍ جامحة تراودهُ عن وقار الكهولة. فتطرّد نجواه على هذا النمط:

(متّعني ربّي بدنياي، ونوّلني مبتغاي، جنّبني مشقّات الهوى، والصدّ والنوى، ولتقم بعدَ ذلك القيامة).

ثم يتفقد الرجل تجاعيدهُ، وشيب شعره، قبلَ أن يطلق أتباعهُ للبحث عن طبيب شعبي يبيعُهُ إكسيرَ الشباب.

* * *

في زمن الحكايا ومواقد الحطب، والقصصِ التي تتناسخ وتتوالد بقوّة الفضول والحشرية، نبتت على حين غرّة، في غفلة عن التنبّه والتفطّن والنجابة حكاية (الميسرّ أمره) مع (السامري) شيخ أطبّاء النبات.

عاشَ الميسّر أمره، أو (الميسوري) في كنف الدّعة والجاه والمال زمناً أباحَ لسيطهِ أن يذيعَ في جنبات الديار، والقرى المجاورةَ مقروناً بالجود والعفّة والوقار. واجتمعَ لخاصّته ولأهل بيته ما لم يجتمع لسواهم من أسباب النعيم، فأحيطوا بأتباعٍ خُلصاء، وأجراء نشطين في الدعاية واستقصاء الأخبار.

وفي منعزلٍ من الأرض، قريباً من ضيعة الميسوري تزهّدَ رجلٌ مغمور النّسب في صومعةٍ منيعة، ورهنَ حياتهُ لشفاء المرضى بمناقيعِ الأعشاب وعصائر الحشائش والرياحين. بلغَ من شغف الطبيب بعلمه، وإيغاله في التزهّد أن هجرَ كوخهُ المترهّل، واهباً زوجتهُ وبناته لمحنة عسيرة، تطلّبت منهنّ التماس الرزقَ بكدّ الزّند، والعمل في المزارع والإقطاعات.

ولمّا كانَ الرجل قد رهنَ نهارهُ لأحوال النبات، وأقامَ ليلهُ على الضّراعة والتبتّل حتى مطلع الفجر فقد عُرف بـ (السامري) أو عشير الليل، أو الجانّ.

ولم يشعر الرجل، في عزوفه وانشغاله عن البنين والسنين وتصاريف الزمن، بدورة الحياة وهيَ تطرّد في أبدان بناته، بما يسمح لجمالهنّ أن يشعّ، ولغضاضتهنّ أن تُبهر. ووحدهما: حدسُ الأم، وانتباهاتها المبكرة تكفّلا بانتقاء الأسماء: فالبنت الكبرى (فلقة القمر)، والوسطى (نجمة السّحَر)، والصغرى (درّة الدّرر).

وينقضي دهرٌ من صبر، قبلَ أن تعي المرأة أبعدَ محنتها، وعقمَ انتظارها، فتقرّ بيُتم بناتها، وترمّلها.. فرجُلها منذور الليل (للتجلّي) وتنادي الأرواح. مرهون النهار لمعاينة المرضى وجبر الكسور وكيّ الأورام والقروح ورتق الجروح وتخصيب الأرحام لقاء عطايا بخسة، وألبسة وأطعمة يتصدّق بها الناس على الطبيب، ويبخسونَ بها حقّهُ.

منَ البخسِ إيّاه.. من نقص الحيلة في مراودة الحياة عن ضرورات ومتوجّبات.. كانَ انزلاقُ المرأة الصارخ صوبَ الهاوية.

بدايةٌ لا لبسَ فيها:

كانَ (السامري) ربيبُ الصوفيّة والطّبابة الشعبية، جليسُ القراطيس والكتب، كاشفُ الحجب عن البلايا المستترة، قد افتُتنَ بفنّه وأعاجيب كشوفه العلمية والروحية، حتى أوشكَ عقلهُ أن يختبل. واختلفَ الرأيُ فيه بين مؤيّدٍ لعبقريته، وشاجبٍ لخرفه وتدجيله، بعدما هجرَ زوجتهُ الأربعينيّة وبناته الأبكار، فزرعتهنّ أعاجيب الصدف في أروقة قصير الميسوري.

ففي ليلة ظلماء.. قُرعَ الباب..

فــي القبس الشاحب للشمعدان لمحت نفراً من الدّرك:

- أهذا بيت السامري؟

ارتجّ صوتها:

- زوجي رحلَ منذ أيام.

انتشــروا فــي جنـبات البيت قبلَ أن يســتعيد أهـل الدار الحشمة بتزرير القمصان على عجل، وطرح الخمر على الوجوه.

- هؤلاء بناتك؟

أجابت المرأة بأمومة مضطربة:

- إنّهن بناتُ الطبيب، تجدونهُ على الشاطئ.

انســحبَ الــرجال بغطرســة وببرود ساخر، وحيثُ أشارت.. كانَ النباتيّ المخضرم أنــهى صلاة الفجر لحظةَ ارتجّ الباب على وقع أعقاب البنادق:

- أنتَ السامري.

- هو أنا.

- نأمرك بمرافقتنا، كبير الضيعة في انتظارك.

وكما الخرافة.. كفتنة ساحر أو تدجيل عــرّافة، تــرامى بيتُ الميسوري فوقَ هضبة مهيــبة مسيّجاً بالأسوار، وكأنّما رُفعَ على كفّ غيمة.

(السيد الكبير عظيمُ المزايا، إنهُ سليمُ الأديــم، مــنيعُ الحــريم، لن يبخلَ عليك بماله وعطفه).

تــرددَ الإطراء في أذن الطبيب طوال رحــلة العــبور إلى الهضــبة. وعــندَ عتــبة المضـــافة، استُقبلَ بحفاوة.. وحملَ سيّد الدار القــنديل بنفسه، وتأخّرَ عن ضيفة خطوة، قبلَ أن يطــلب الخلوة به برجاء ملحّ حيّرَ المقرّبين مــنهُ، وحيّرَ (السامري) الذي غادرَ عندَ الفجر مثقلاً بالهدايا والتشويش.

يذكــر جيــداً أنّ (الميســوري) طالبهُ بحديــث مسهب عن منافع الزروع، وخشاش الأرض، فأفاض الرجل شارحاً مزايا (البيلسان والزعــرور والحــنظل والــرنّد والزعفــران والـــدردار والبابونج والخروع والعرق سوس والــرياحين والأقمـــاح ومـــناقيع التمر هندي وقشـــرة البصل وحشوة البلح..) وحين عطف مـــبرزاً فضـــائل (الآس والأثـــل وجوز الطيب والزنجــبيل) فـــي اســـتخلاص صبغةالشــعر، ومقوّيـــات القــلب، وتنشــيط الغدد الجنسيّة، ومعالجة عجز الكهولة. صاحَ الشيخ بغتةً:

- قـــف.. العشبة الأخيرة، زدني منها، زدني أيها الطبيب.

توسّطٌ بعدَ توسّط

وانشــغل الطبيب طويلا بجمعِ أعشاب الزنجــبيل، وثمار جوز الطيب مقرونةً بطرائق الاســـتخدام المثـــلى للبرء من ترهّلات الجسد، وتبعات التقدّم في السنّ، وكابدَ الوقت في سعيٍ لاهــث لاستحضـــار النبتة التي رغبها الشيخ، وتفريخها في مستنبت أعدّهُ لها. في وقتٍ عمدَ فيـــه سماســـرة الــبغاء ودركُ الميسوري إلى إلحـــاق زوج الطـــبيب وبناته في خدمة البيت الكـــبير، بما للأسياد من نفوذ على العبيد، وبما للحاجة من سطوة على صاحبها.

وأصــبحت تُــرى الزوجة في دهاليز الـــدار وحجراته، ساعيةً مع بناتها بكأس ماء أو طبق حساء، بما شفّ منَ اللباس، أو تهدّلَ عـــن الأكـــتاف، أو انحسرَ عن الركبةِ والصدر حســـبَ مقتضـــى الحال ودرجةِ الاستعجال بين صوت آمر، وآخر أمرّ.

وكانَ لا بدّ لعين الناظر من أن تتشرّب الجمـــال في أندى صوره، ولا بدّ للفأس من أن تقع في الرأس.

وحيـــثُ الصومعة، والرجل الغائب عن دارة الخطـــر.. استمرّ الدركيون يفضّون بكارة الـــليل بمداهمات وقحة، فيبتر الصّوفي صلواته مرحّباً بهم على كُرهٍ منهُ:

- مرحباً برسُل السيّد، هل من خطب؟

وينبري أحدهم متوعّداً:

- مزيداً من العشبة لسيّدي الميسوري.

وفيما بعد، حينَ لم يعد الرجل يطيق تلك المداهمات المشبوهة، صارَ ما إن يفتح الباب حتى يُباغتَ بالسبطانة تحتَ أنفه، ويفحّ حاملها منذراً:

- العشبة أيهـ، الأبله، مزيداً من العشبة للشيخ.

يغادرون.. فيوغل الرجل في الحيرة والتشويش، ولا ينكشف عنهُ همّ. حتى صلاتهُ، ما عادت تسكن الزوابعَ الناشبة فيه، وأضحت تزورهُ في المنام كلاب وفهود وبزاة وشواهين فتنهش عورتَهُ.

في قصر السيد الكبير، لم يطل الأمر بالأم والبنات وهنّ على ما عُهدنَ عليه من فتنةٍ وجمال، فقد دقّ ناقوس الخطر في الأقبية، والأروقة المظلمة، والأحراش، والاسطبلات، والشرفات النائية.

ففي ليلةٍ قمراء، عصفت بالسيد الأكبر نوبة سعال، ونادى على خادمه الشخصي دونَ استجابة.

إذ ذاك.. خرجَ من المخدع حانقاً، لاعناً خدَمَهُ وتابعيه، ليتعثّر في الظلمة بإمرأةٍ مضطربة، دفعتها أكفُّ الخادمات المفزوعاتِ صوبَ السيّد.

في نوبات بكائها المرّ، تذكر المرأة (وقد كانت زوجةَ السامري) كيفَ قاستها عينا الشيخ الجاحظتان طولاً وعرضاً وبهاءً واكتنازاً، كيفَ ارتجفت شفتاه وهو يستفسر عمَن تكون؟ وكم من وقت مضى عليها في الخدمة؟

وهدأ السعال بقدرة قادر، واختبلَ عقل الرجل هُياماً، فاستدعى المرأة برقّة وأبّوة لتسقيهِ الماء، ولتحضّر منقوعَ الحشائش التي أعدّها زوجُها بيديه لإضرام الرغبة، ودغدغة الغرائز في جسد سبعيني ذاو. وما كادت المرأة تُلقم مخدومها آخرَ القطراتِ الساخنة، حتى تحوّلت إلى لقمةٍ سائغة على سرير الخيانة الزوجيّة.

والسّامري.. عشيرُ الجانّ، عن كل ذلك بمنأى، وقد طالَ اشتغالهُ بتصريف أمور سيّد الإقطاعة، وعلاجِ أمراض سنّه المتقدّمة، إلى أن جاءَ ليل أحلك من غراب.. نُقرَ فيه الباب بخفّة. ولمّا فتحَ الرجل، أطلّ ملاك بخاطر كسير.

رمشت عينا الرجل قبلَ أن يتعرّفَ الزائر، ويفسحَ مكاناً لعبوره الرقيق.

تهدّجَ الصوت الأنوثي تحتَ وزر الخطيئة:

- أبتاه.. صلّ لأجلي، واشفع لي.

أنّت ضلوع الرجل، ولو بقيَ ظاهرهُ محايداً:

- مَن فعلَها يا فتاة؟

ضرعَ الصوت لاهثاً:

- لا أجرؤ يا أبتي.. لا أجرؤ..

سقطَ القلب، والتقط لحظُ الأب انتفاخَ بطنِ الابنة، التي لاذت بالفرار تحتَ جنح الليل.

ترسّل لا مفرّ منه:

في زمنِ اليباب ذاك، والحكاية التي تطير بلا أجنحة، فتعبر أعتى الذرا وأشسعَ المسافات بقوّة الفضول، وشهوة النميمة المتوارثة. كانت الألسن من رأس الإقطاعة إلى ذيلها تتناقل أخبار الميسوري بمسحة اسطورية تُطري نبل الرجل الذي تناسلت أملاكه في كل مكان، ومعها أعمال البرّ والإحسان إلى اليتامى والأيامى والكهول والمعوزين والعلماء وأئمةَ العشائر والطرائق والعقائد.

ويتناقل الرواة أصداءَ الرحلات التي أضحى يبزّ بها السيد أمهرَ الرماة في صيد الحجل والكراكي ووعول الغاب، مما يشي بفتوّة وفروسيّة خلّفت حسداً في نفوس الشبّان. ويُشيدون بمحيّا الشيخ الباسم أبداً، وباكتناز عضلاته بعدَ ضمور، ويقظة حيويته بعد فتور، واستطالة ولمعان شعره، واستقامة عوده، دونَ أن يقفوا على أسباب ذلك.

في ذلكَ الزمن، دخلَ نجم السامري الطبيب طورَ الأفول، وسطَ شائعات أكدت جنونهُ، ورؤيَ عارياً يجوب الشواطئ، وضُبط يعاقرُ الخمرة، ويضاجع حوريّات الماء. وترددت اصداءُ مجونه وقهقهاته آناء الليل، فأعطت سبباً لنوم الأطفال المبكر، والكفّ عن عقوق الأهل.. وانفضّ عنهُ الراغبون والمريدون والتحقوا بالمجلس الأهلي الذي يُعقد يومياً في دارة (الميسوري) على شرفه وبركاته.

- أبتاه.. صلّ لأجلي وتشفّع.

ويصلّي الرجل باكياً، ويصطلي بحريق اللوعة، فها هي البنتُ الوسطى، وبعدها الصغرى تسعيان إليه بمولود شؤم تنكّر لهُ أخسَ رعاع البلدة، وأسفلُ سافليها.

ويزأر الرجل بما للأسود من بقيّة أنفة:

- من فعلها يا فتاة؟

فتردّ الأخرى قبلَ أن تلوذَ بالفرار:

- لا أجرؤ يا أبتي، لا أجرؤ..

وفي غمرة من نوَسان الرجل بينَ أقطاب الحيرة، ومخالبَ الشك والأرق، لشهورٍ خلت، تقودهُ قدمان هزيلتان إلى شاطئ البحر، فيلمح طيفاً هزيلاً يرتقص في اسوداد الليل كذبالة مصباح عتيق:

- أهذه أنت يا امرأة؟

وتلتفت الزوجة بكهولة هائلة، وعينين دامعتين:

- ومَن تحسبني أكون؟

فيثب السؤال الملغز إلى شفتيه:

- من فعلَ بكنّ هذا؟

فترميه الزوجة برصاص لحظيها، وتنفث سمّها في عروقه دفعةً واحدة، بما يكفي لقتل أعتى الرجال:

- السيد الأكبر.. أيّها المغفّل.

ولا تلوذ المرأة بالهرب.. بل تنغرز في الرمال كراية ممزّقة.

والرّجل.. يسحب خطاهُ الواهنة، وأذيالَهُ العالقة بالأسى والخزي والتلاشي، ويمضي في الطّواف والسرّاية كيفما اتّفق، فُتاة روح.. لا أكثر.

وقُبيل الفجر

يبدأ طقساً عجيباً في دخول اليمّ، غير مروّعٍ ولا هيّاب.

الانكشاف:

وذات صباح، شوهدَ السامري عالقاً في حبال الصيّادين، مكفّناً بالطحالب والأشنيات وحشائش البحر التي وهبَها ستّون ونيفاً من كدّ السنين، وغفلة الأعمار.

وقيلَ الكثيرُ في موته.. لكنّ الأقاويل خمدت لعلّة ما، دُفنت في الصدور، خلف الأبواب والجدران، في المنافي، وأقبية الزنازن، وربما المقابر.

لكنّ العبرة:

انسلّت إلى الرؤوس، إلى الدماء، والجينات، والأرحام، فتقلّصت بتقلّصاتها، واندفقت مع مقذوفها، وهكذا: نجت من الموت.

أمّا الميسوري..

فنجا أيضاً من الموت، بفضل عشبة الخلود والانبعاث.

إنهُ ينبت في كل زمان، في كل مكان، بلون جديد، وحلّة جديدة..





شعر: محمد عبد الحكيم دبدوب

كابتهالٍ رائعٍ يسري على خدّ المساءْ

كانتثارات الأوابد فوقَ أرجاء السّماءْ

كاختلاجات المُحيّا عند تحقيق اللقاءْ

دقّ بابُ الحبّ ضيفاً رائعاً، بالبشرِ جاءْ

وانتشى قلبي بحسٍّ مُرهفٍ دون اكتفاءْ

صار بحراً ليس يشكو في الهوى من كبرياءْ

صار مملوءً بسحرٍ مُفعمٍ نوراً وماءْ

جاء مكلوءً بعطف واحتواءات الحياءْ








فاتحـــــاً بـــــاب الــــتّلاقي، مُطـــــلقاً أبـــــهى نـــــداءْ

جـــــاعِلاً لـــــلحبّ قصـــــراً – واعتـــــنى عـــند البـــــناءْ –

واثقـــــاً أنّ الـــــنهار مؤكّـــــداً صـــــار الـــــرّجاءْ

كـــــم تـــــتالى الـــــلّيلُ قبـــــلَكِ بالتّـــــنائي والجفـــــاءْ

كـــم قســـا قلـــبي غـــريقاً تحـــت ســـورٍ مـــن عـــناءْ

جـــئتِ يـــا عمـــري إلـــيّ الـــبرءَ طُهـــراً والـــدّواءْ

جـــئتِ للمكـــلومِ عُشـــباً حـــاملاً آيَ الشـــفاءْ

جـــئتِ غيـــثاً وابـــتهاجاً هَطْـــلُه أعـــطى الـــنّقاءْ

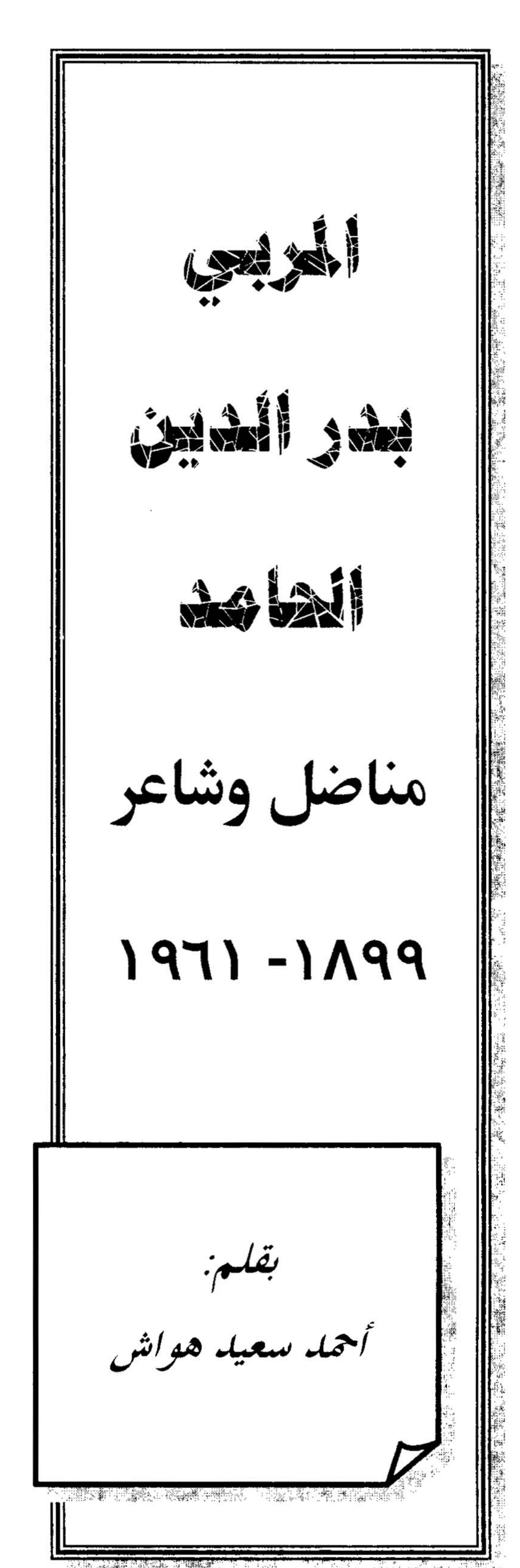
جـــئتِ روحـــاً فـــارتقتْ فـــي الـــدّار أنغـــام الـــرّخاءْ

كـــم أحـــبّك يـــا حيـــاتي وابـــتهالي والضّـــياءْ

ديمـــتي، أهـــواكِ فـــابقيْ فـــي تراتيـــلي بهـــاءْ

أيـــنَ كـــان الحـــبُّ قبـــلَكِ، كـــم ســـباني حيـــن جـــاءْ



المربي بدر الدين الحامد

مناضل وشاعر

١٨٩٩- ١٩٦١

بقلم: أحمد سعيد هواش

تعود بي الذكرى لأكثر من أربعين عاماً مضت.. عندما لمحت عيناي لأول مرة المربي بدر الدين الحامد في أروقة ثانوية ابن رشد في حماه في مطلع الخمسينات من هذا القرن، حيث كان مدرساً لمادة اللغة العربية وآدابها لبعض الصفوف العليا في المرحلة الثانوية، كما سمعته منشداً لبعض أشعاره في أمسيات ثقافية كان يعدها المركز الثقافي في مدينة أبي الفداء بإشراف مديره الأديب المجاهد سامي السراج رحمهما الله في العقد الأول من الخمسينات..

قامة طويلة، وجسم ناحل، ووجه أسمر ذو خطوط حادة وقسمات دقيقة، تلك هي الصورة التي ظلت في ذاكرتي حتى الآن كمثال عن شاعر العاصي الذي كان ذكره على كل شفة ولسان، ليس لأنه شاعر فحل فحسب.. بل لأنه كان شاعراً وطنياً، وكان شاعراً مجاهداً في القافية والبندقية.. إنه الشاعر الحق.. الشاعر الفارس حفيد أبي فراس الحمداني، والمعتمد بن عباد، وعبد الرحيم محمود وغيرهم من الشعراء الفرسان العرب..

إنه كان، وظل، شاعر النفس الرقيقة وشاعر الوطنية المؤمنة، وشاعر الكفاح وشاعر الوفاء..

يقول الدكتور عبد السلام العجيلي عن وطنية شاعرنا الحامد وجهاده ووفائه: ".. لقد وهب الأرض التي أنجبته هوى قلبه، وغنّى للأمة التي هو منها أمجادها.. ورفع عقيرته بأناشيد جهاده. أصحابه في تلك الأيام هم الفتية الذين وضعوا أرواحهم على أكفهم في نشدان الحرية والاستقلال. لقد تتابعوا في دروب الكفاح قوافل أثر قوافل، تأكل القيود من معاصمهم والمنافي من جسومهم، والحراب

من لحومهم ويقتلون في سبيل الوطن ويقتلون.."

ومن يطالع ديوان الشاعر بدر الدين الحامد الذي أصدرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي في دمشق، يجد كل ما ذُكر وأكثر، نجد الوفاء لوطنه وعقيدته ومثله العليا، والوفاء لرفاق الجهاد والكفاح الذين قال عنهم:

هذي الروابي وهاتيك البطاح ثوى
فيها إلى الحشر أبطال مناجيدُ
مدادنا اليوم من زاكي دمائهم
ماتوا لنحيا.. كذلك الفضل والجودُ
عذراً وعفواً، فإني من بقيتهم
يا ليتني معهم في التراب ملحودُ

ولم يجنب الحقيقة الشاعر المرحوم أحمد الجندي عندما قال في تقدمته الرصينة لديوان شاعرنا الحامد رحمه الله:

".. فإذا رجعت إلى ديوانه اليوم وجدت فيه سجلاً حافلاً وجدولاً واضحاً لكل ما مر في سورية من أحداث جسام حتى يصدق فيه مقولة القائلين: (الشعر ديوان العرب) وأضيف فأقول ليس في سورية فحسب وإنما في الوطن العربي الكبير.. حيث كان الهم العربيُ شاغله الشاغل في سورية ولبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية والمغرب العربي بأقطاره كافة.. ففي القطر العربي السوري، وجد الفرنسيون بالشعب العربي السوري شعباً مقاوماً، يتحدى المعتدي ويقاوم حتى النصر أو الشهادة، وما معارك الغوطة، والمزرعة، وحماه، جبل الزاوية، والبادية، ودير الزور، وجبال اللاذقية، إلاَّ أنموذج لتلك المقاومة الشرسة ضد الفرنسيين والتي بلغت ذروتها في معركة (ميسلون) في الرابع والعشرين من تموز لعام ١٩٢٠، والشاعر ابن بيئته وهو صوت قومه وأمته يعكس في شعره آمالها وآلامها، ومن كالشاعر الخالد بدر الدين الحامد في تحقيق ذلك..؟"

لقد كان شعره - في تلك الفترة - وما بعدها الشعر الوطني الذي يمثل كفاح شعبه وأمته العربية في نضالها ضد المستعمرين ويعبر بصدق عن آمالها في بلوغ الحرية والاستقلال.. يفرح لفرحها ويحزن لحزنها، ينثر ذلك بأغانٍ وقصائد لا أجمل ولا أحلى..

لقد كان جلاء المستعمر الفرنسي الغاشم عن أرض الوطن في السابع عشر من نيسان لعام ١٩٤٦م حدثاً عظيماً وعيداً قومياً في قطرنا لا يعلو عليه أي حدث آخر. لقد تم الجلاء.. بدم الشهداء الأبطال الذين سالت دماؤهم فداءً لسورية العربية.. فانتزعوا النصر من جبهة الليث وقبة الفلك، متقلدين سلاح الحق مع الإيمان بالنصر.. فكان الجلاء العظيم الذي عبر عنه شاعرنا - الحامد - مظهراً سروره وسرور أبناء شعبنا العربي في أقطاره كافة حيث قال:

بلغت ثأرك لا بغي ولا ذام
يا دار ثغرك منذ اليوم بسّام
هذا الترابُ دمٌ بالدمع ممتزجٌ
تهبُ منه على الأجيال أنسام

إلى أن يقول:

يوم الجلاء هو الدنيا وزهوتها
لنا ابتهاجٌ وللباغين إرغامُ

وجـه لغـراب توارى وانطوى علمٌ

للشـؤم مـذ خفقـت في الأفق أعلامُ

يـا راقـداً فـي روابي ميسلون أفق

جـلت فرنسـا فمـا في الدار هضام

لقـد ثأرنـا وألقيـنا السـواد وإن

مـرت عـلى الـليث أيـامٌ وأعـوامُ

إن موهـبة الشـاعر وقريحته التي لا تخـطئ ولا تحيد عن الطريقة الفنية الواضحة لـم تترك مجالاً لأي شرح أو تأويل فهي تنطق لفصـاحة ألفاظهـا ونصاعة أسلوبها وانطباع قريحة قائلها لأنه الشاعر الحق الذي حمل آلام الوطـن والأمة وهموم الإنسان.. كلها في آن واحد وفي قلب واحد..

ولقـد أكـثر شاعرنا في شعر الرثاء الـذي أنشده في مناسبات خاصة باستشهاد أو ذكرى رحيل رفاقه، وهذا يدل على الوفاء لهم وللوطن معاً كما يدل على نبل المقصد.

فالشاعر الحامد لا ينسى رفاق الكفاح والنضـال ورفاق الدرب الطويل والشاق الذين سـلموا الـراية لمـن بعدهم بعد أن حققوا ما حققوا من أمجاد وبطولات وذكرٍ عطرٍ لا ينسى عـلى مـدى الأيام والسنين، ومن الطبيعي أن رثاء هذه السيوف المغمدة يراه الشاعر واجباً ولا يطـلب مـن ورائه جزاءً ولا شكوراً، كما نستشـف مـن رثائـه لهـم صـدق العاطفة وتأججهـا. إن مأسـاة الحياة في نظر الشاعر واعتـباره أن تـبعده عن أحباء قلبه وأصفياء روحه، وعن معانيه السامية ومثله العليا. نعم إنها المأساة الكبرى. قال فيها بدر الدين الحامد يخاطب بن أمه صقر الصحافة المرحوم نجيب الريس حيث يقول:

نجيـب، يا خدن روحي أين أنت فقد

طـال السـفار ومـن أحببتهم ساروا

أفردتـني يـا أخـي حـتى كأني في

دنيـاي نجـم عـلى الدحـداح سيار

أصـبحت والله لا آسـي على كبدي

أنّى اتجهـتُ مـن الأحـزان تيـار

ضـاقت بكـم يـا أحبائي على عجلٍ

مـن هـذه الأرض أنجـاد وأغـوار

تركـتموني ومـالي بعدكـم أمـل

يـرجى وإنـي عـلى الحالين صبار

نعـم إنه شاعر الوفاء، لم يكن الحامد وفيـاً لفضـل إنسان عليه بل كان وفياً لوطنه وعقيدتـه ولمثله الأعلى، لقد كان وفياً لنفسه وخصـاله الـرفيعة، وفياً للمخلصين من أبناء الوطن والأمة العربية، فها هو ينشد في ذكرى وفـاة الـزعيم الوطـني المجاهد المغفور له إبراهيم هنانو في مدينة حلب في عام ١٩٤٥م فيقول مخاطباً إياه ومعاهداً على الوفاء.. ذاكراً الذكـرى العطـرة الـتي تركها الزعيم الراحل هنانو:

إيـه إبـراهيم عهـد ثـابت

لـك فيـنا ووفـاء لا يـذم

إن إخوانـك مـازالوا عـلى

مـبدأ فـي صـدقه الحـق العمـم

أنـت مـثل الشمسِ في وأد الضحى

أنـت فـي ذكـراك للـناس عـلم

نعم لقد كان الفقيد هنانو علماً شامخاً وكذلك كانت بقية السيوف العربية التي لازالت ذكـراهم ماثـلة بيننا كأنهم أحياء يعيشون في جنباتــنا، وهــل في استطاعة الزمن أن يخفي ويمحــو سـيرة الـزعيم الوطــني سـعد الله الجابـري، الذي كان ملئ السمع والبصر، فها هـو الشـاعر الحامد يخاطبه في حفل التأبين الــذي أقيـم له فـي دمشـق في شهر نيسان ١٩٤٨ ذاكراً حسن صنيعه وأعماله التي بقيت خالدة من بعده حيث كان الفقيد غير منشغل في زخـرفة الحياة وبهرجتها مكرساً جهده لخدمة وطنه ليسعد أبناءه:

أأنــت فــي القــبر لا تلوي على أحد

أم تــلك دنيــا طواها الموت في جسد

ويقول:

يفــنى الــزمان ومــا أبقيت من أثر

مخــلد الصــنع مــرفوع عــلى عمد

لــم تـلق بــالاً إلى الدنيا وزخرفها

ولــم تــرد مــتعاً مــن لــذة ودد

ثـم يخاطب الشاعر بدر الدين الحامد المغفــور له الجابري ويطمئنه بأن أبناء أمته العربية سيحافظون على العهد بطرد المستعمر وتحرير فلسطين فيقول:

يــا سـعد نـم مطمئناً فالعروبة في

خيــلٍ ورجــلٍ مــا يرضــيك من عند

نــادت فلســطين وتــتالت لنصرتها

كــل نــدبٍ كشــبل الغــاب مــنجرد

ولــم تقتصر المعارك التي جرت على أرض سـورية عـلى منطقة معينة، فقد اشعل الـثوار جذوتها في معظم مناطق القطر، وفي كل منطقة يظهر قائد بطل يقود الثورة، فالقيادة مسـؤولية وليسـت وجاهة فقط، ومن هؤلاء الـزعماء والقـادة الأبطال الشيخ صالح العلي الذي قاد ثورة مسلحة شجاعة على المستعمر الفرنســي فــي جـبال اللاذقية أفقدت المحتل توازنــه فقصــف القــرى الآمنة وقتل وشرد السـكان الأبرياء في المنطقة الساحلية انتقاماً لخسائره البشرية والحربية.. ومن اقدر وأجدر مــن شـاعرنا بـدر الدين الحامد على الوفاء بإعطــاء القــائد العــلي حقه من التكريم الذي يسـتحقه.. لــذا نرى الشاعر قد خص الشيخ صــالح العلي بقصيدتين رائعتين الأولى أنشدها فــي مدينة اللاذقية في حفل تكريم القائد الثائر العــلي عام ١٩٤٥ والقصيدة الثانية كانت في رثائه عام ١٩٥٠ ، وفي حفل التكريم أنشد:

يــا صــالح الــنية البيضاء ليس له

فــي مغــنم دنيــوي الشــان أوطارُ

أو ليســت أول مــن عــزت بثورته

هــذي الــربوع وحــادي الشؤم نعارْ

يــا صــامتاً وـله فصل الخطاب إذا

مــا راح يهــدف بالتضــليل ثـرثارُ

صـمت النـبيل بيــاتٌ إذا يمـر به

سـيل مــن الجشـع المسـتور هدارْ

لقــد تــلاقى وتــناغم الشعر الصادق الجميــل المفعــم بالحب والتقدير مع البطولة والمــروءة المتمثلة بالبطل الذي يعمل بصمت ويــترك لأعماله وسيرته أن تنبىء عن نفسية

صاحبها الأبية، إنه صمت النبيل الذي قهر المستعمر المحتل الغاصب بهذه الأخلاق والسيرة الحميدة.

ويتألق الشاعر بوصف القائد العلي واثقاً من شاعريته الثرة المعطاءة ومكانة صاحبها فينشد قائلاً:

دعني أزدك، فـي شعرٌ بوصفك في

جو العروبة، مثل النجم سيارُ

هذا فؤادي مرآة قد انعكست

عليه من خلق الأبرار أنوارُ

إنه الصفاء والوفاء لدى الشاعر الحامد لرفاقه المجاهدين حيث يرفدون شاعريته المعطاءة بنبل أخلاقهم وسموهم فيشع نوراً على القلب المفعم بحب المخلصين لوطنهم فينفثه أغاريد تفيهم بعض حقهم فهم أكبر من الكلمات والقوافي.

ويستشهد البطل القائد - سعيد العاص - على بطاح فلسطين في عام ١٩٣٦ بعد أن جاهد وقاتل الفرنسيين في الثورة السورية الكبرى، فهو في حرب مستمرة هناك ضد الصهاينة.. وهنا ضد العدو الفرنسي الغاشم، إن المعركة واحدة والعدو واحد وإن تعددت الجهات والأسماء، والشهيد خالد في ضمير شعبه وأمته العربية أيّاً كانت الأرض العربية التي ارتوت نجيع دمه الطاهر، كما يقول الشاعر الحامد:

شرف لعمرك أن تموت شهيدا

متفيئاً ظل الخلود حميدا

أو لست منذ صباح في ساح الوغى

تعلي لقومك في الحفاظ بنودا

إن جزت معركة جريت لمثلها

أترى خلقت من الرجال حديدا

إلى أن يقول:

ذكراك يحفظها الزمان مردداً

شرفٌ لعمرك أن تموت شهيدا

وفقدت الأمة العربية ابنها البار الزعيم الوطني اللبناني رياض الصلح فيرثيه الشاعر في الحفل التأبيني الكبير الذي أقيم له في مدينة صيدا عام ١٩٥١ مظهراً عروبة الزعيم الصلح ووطنيته الحقة مما جعل الاستعمار يدفع بعملائه لقتله غيلة وغدراً فيقول من قصيدة:

نم يا رياض فأنت النجم مؤتلقاً

وأنت للعرب في دنيا العلى روح

إن يصرعوك فلا عيب ولا عجب

الفارس الندب في الميدان مطروح

ثم يظهر الشاعر فرح رياض الصلح بجلاء المستعمر الفرنسي عن القطر العربي السوري وتهنئته للشعب وزعمائه المخلصين الذين كان النصر بفضل جهاد الشعب الذي قادوه وجهادهم، وذلك بيان يدل لى نبل وسمو نفس الزعيم الصلح الذي عبر عنه الشاعر بقوله:

يوم الجلاء ملأت الشام تهنئة

والحفلُ فيه بما يرضيك مسموح

وقفت تنثر قولاً ملؤه شمم

بيانه بنسيم النبل منفوح

ثــم يذكر الشاعر القول المعروف عن الزعيم - رياض الصلح - والذي أصبح يتردد عــلى لســان الكبير والصغير من أبناء الوطن العــربي: لــن يكون لبنان ممراً للاستعمار ولا مستقراً فيقول الشاعر:

لا لــــن يكــون مقـــراً لــلغزاة ولا
نمســـي ممـــراً لهم من بعد ما زيحوا
لـــك الخــلود عـــلى مـــر الزمان فنم
وأنـــت لــلعرب فـــي دنيا العلى روح

نعــم ســتبقى ذكــرى الزعيم العربي ريـــاض الصـــلح خـــالدة في نفوس أبناء أمته العـــربية لأنـــه كان يمثل روحها الوثابة الأبية وشموخها وعزتها وكرامتها..

ويتحقق حلم الشاعر بدر الدين الحامد بوحـــدة عـــربية بين القطرين الشقيقين مصر وســـورية في الثاني والعشين من شهر شباط لعـــام ١٩٥٨ومـــن كالشـــاعر الحامد المجاهد يـــدرك أهمية الوحدة في تحقيق القوة والمنعة لمـــنح الاستعمار والصهيونية من إذلال الأمة العـــربية وتدنيس أرضها، فيقول الشاعر بهذه المناسبة القومية التاريخية العظيمة:

أمـــاني كـــانت في الظنون فأصبحت
بشـــائر فـــي الأفواه يهفو لها القلب
ومـــا الشـــام إلاَّ مصر في كل حادث
ليـــالي كـــان الدهـــر في مهده يحبو
فـنحن عـــلى جـــور الزمان وعذله
ســـيوفٌ لعمـــر الله في الروع لا تنبو

فـــلا بـــد من قيام الوحدة العربية التي تكـــون نواتها الشام والقاهرة، فقد توحدنا في عهـــد الـــبطل صلاح الدين الأيوبي وتم تحرير القـــدس وفلسطين من الصليبيين، فهل تتوحد أمتـــنا في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها أمتـــنا العـــربية؟! ليتم تحرير فلسطين وجميع الأراضـــي العربية المحتلة من دنس الصليبيين الجدد؟!

لا شـــك بأن وشائج القربى والروابط المتيـــنة التي تربط أبناء الأمة العربي ببعضهم كـــثيرة وأن الوحدة ستكون لهم جميعاً المنعة والحصـــن الحصـــين في وجه العدو المتربص بهم والمحدق من كل جانب كالذئاب التي تستعد للهجموم على فريستها، فهل يُخيِّب أبناء يعرب أمـــن أمـــتهم في توحيد صفوفهم وإقامة دولة الوحدة؟

وهكذا نجد ديوان الشاعر المربي بدر الديـــن الحـــامد قـــد خص القسم الأعظم منه للمناســـبات القوميـــة المتمثلة برثاء الزعماء الوطـــنيين والشـــهداء الذين سقطوا برصاص المســـتعمر الفرنسي على بطاح سوريا العربية وروابـــي فلسطين الجريحة بشعر قوي اللفظ، واســـلوب رصـــين تزينه قريحة مطبوعة مما جعلـــه مرآة زمانه وصورة عصره، فكان بحق شاعر الشهداء وشاعر الجلاء، وبذلك استحق خـــلود ذكـــراه فـــي أنفس الوطنيين الصادقين كشاعر الكفاح، ولكأن الشاعر كان يعرف مقام نفســـه الـــتي هـــي أبعد ما تكون عن البهجة والأضواء، وإن ما يهمها رضا الله والشعب إذ قال:

فـــي هـــذه الـــدار مجدٌ باذخٌ وعنى
وفـــي ربى الخـــلد جـــناتٌ وأنـهـــار





صوني اللآلئ..

شعر: زياد البصري الجزائري

مــن أغضــب الحُســنَ الــلعوبَ فضــاقا

وشـــكا وأنَّ فـــلوّعَ العشـــاقا

مــن هــان حــزنُ الــورد فــي أعــرافه

فأبـــاحَ دمعـــاً كالـــلجين مُـــراقا

يـــا ويحـــه مـــن ظـــالم بـــرمت بـــه

غيـــد الـــزهور وأعرضـــت إشـــفاقا

حســـناء هـــذا الجفـــنَ جَـــلَّ عـــن الـــبُكا

فتبســـمي يـــزهُ المـــدى إشـــراقا

لا تمســـحي بـــالكفِّ دمعـــكِ.. احـــذري

هـــذي الأنـــامل قـــد جبـــلنَ رقاقـــا

مـــن أغضـــب الحســـن الـــرهيف تعديـــاً؟

أو ليـــس يحمـــلُ نابضـــاً خَفاقـــا؟

يـــا حـــلوتي صـــوني الـــلآلئ وانجـــلي

لا تكـــثري مـــن كـــنزها إنفاقـــا








لـــو تعـــلمين بمـــا طويـــتُ مـــن الـــلظى

ولكـــم حســـبت هـــوايَ والأشـــواقا

أبحـــرتُ فـــي عيـــنيكِ باســـمة المـــنى

وصـــحبت مـــوج دموعهـــا رقـــراقا

مـــا كـــنت أحســـب أن حُســـنَك باكيـــاً

قـــد نـــافس الحســـن الـــبهيج وفاقـــا

فغـــرقت إبحـــاراً وهمـــتُ تـــرنحاً

ورشـــفت أكـــؤس خمـــرتين عـــتاقا

حســـناءُ هـــذا الوجـــه أكـــرم مـــلهمٍ

بـــدعُ الجمـــالِ بســـحره تـــتلاقى

لا تحرميـــني مـــن رؤاه فكـــم هفـــت

روحـــي إليـــه.. وجـــابت الآفاقـــا

كـــم غـــبتِ عـــن عيـــنيَّ دون تـــلفت

وتركتـــني متجـــلداً مشـــتاقا

وبـــيَ الفـــؤادُ كمـــا الفـــراش مـــتيمٌ

بالـــنورِ.. يتـــلفُ دونـــه إحـــراقا

أســـكرت مـــنك جوارحـــي ومطـــامحي

ورأيـــتُ مجـــديَ ذلـــك الإخفاقـــا







أهــوى! وأعجــب مــن فــؤادي يرتضــي

جَمْــر الغضــا والسُّــهْدَ والإرهاقــا

يــا لــي أســيراً يســتجيرُ بآســرٍ

ويهــاب كســرَ القيــد والإعــتاقا

يــا مــن تجاهــلت الحــنينَ بــنظرتي

ومدحــتِ فــي الــرأيَ والأخلاقــا

هــذا خــلاّن اصــطحبت كــليها

فجــنيتُ صَــدَّ الحُســنِ والإملاقــا

رودي جــنانَ مشــاعري وتــنعمي

فــي خــافق غيــر الجــوى مــا ذاقــا

شــاَد الهــوى فــي روضِــه قصــرَ المــنى

مــن غيــر بــابٍ يعــرفُ الإغلاقــا

أتــرى مــنايَ مــناك؟ أم وهــمٌ ســرى

فــي خاطــري فصــفا الخيــالُ وراقــا

أم هــل يــبوحُ الــثغر مــنك بــلهفة

فــنذوب شــوقاً أو نغيــبَ عــناقا

أم أنــتِ بعــض هــزائمي فغــدٌ أرى

قلــبي يــناجي الــليلَ والأوراق






ثمة أوهام أو أضاليل يحاول أصحابها أن يروّجوا فكرةً لا تخفى الغاية منها، وهي أن عهد الكتاب قد ولّى إلى غير رجوع.. والعجيب أن بعض هؤلاء يحلو لهم أن يقتنوا كتباً ذات حجم معين لغرض الزينة والتباهي، ولملء بعض الفجوات المتثائبة في منازلهم، بعد أن يغلّفوها، ويُحْكموا تغليفها وتقويتها، ويُخطّ عليها بماء الذهب كي تضْخُمَ وتبهُر عين الرائي؛ فقد يخفى الذهب في (الجيوب) فلا أقلّ من أن يظهر في (الكعوب).

أوهام..

وفي ذكر بعض الأوهام التي سبقت الإشارة إليها، ثمة أمران:

أولهما: ما يغلب على ظنّ بعضهم أنّ ما يُسمع ويُرى، في بعض وسائل الإعلام، فيه غُنْيةٌ عن الكتاب والتراث، كأن بينهم وبين التراث ثأراً أو تِره.. مع أن التلفاز والإذاعة يعتمدان في كثيرٍ مما يُعرض من أفلام ومسلسلات، بل فيه كلّه، على الكتّاب والكتاب والأقلام، حتى ليمكن القول: لولا الأقلام لما كانت الأفلام؛ فإذا خلت الساحة من هذه أقفرت الشاشة الصغيرة، وعراها الخواء..

ثانيهما: أن إغراءات الشاشة الصغيرة خاصة قد تصرف (الزبون) عن البرامج الجادّة من أدبية وثقافية – على قلّتها – ولا تكلفه أكثر من استعمال (جهاز التحكم) لينتقل بلا أدنى كُلْفة أو عناء، إلى فيلم أو مسلسل يَغرق فيه ولا يجد فكاكاً منه..

لكي تدوم المُتعة الحديثة

فلكي تدوم الشاشة الصغيرة، ويدوم المَددْ وتستمرّ المُتعة الحديثة لمن يحب أن يستمتع، ليلَه ونهارَه، لا بدّ من بقاء الكتاب والكتّاب، فهُمْ مصدرها، وهم الذين يمدّونها بكثير مما يكتبون ويبدعون.. وإذا فلا بدّ لعشّاق الشاشة الصغيرة، ولعشّاق المسلسلات والأفلام، أن يتقدّموا دعاة الإبقاء على الكتاب، والحفاظ على عشق المطالعة، ليبقى للعشق رونقه وتألّقه.. أما إذا كان عشقهم هوائياً، وثمة في

بعض الفضائيات ما يَشغلهم أو يعوّضهم، فلهم عندئذ شيطانهم يأنسون إليه ويأنس إليهم، ويدلّهم على طريق العشق السوي، كلما اعتراهم ضيق أو سأم.

أقوال.. ومواقف

وقد يكون من المفيد أن نعرض لبعض الأقوال والمواقف المتصلة بالكتاب وشأنه، لبعض أدبائنا القدماء والمحدثين الذين قدّروا الكتاب حقّ قدره، والذين ندين لهم بحفظ ما تركوا لنا من فكر وأدب، وخلّفوا من علم وتراث.

وكلّنا يذكر قول الجاحظ: "الكتاب نعم الجليس والعُدّة، ونعم النديم في ساعة الوحدة.."

ويظهر جليّاً موقف الجاحظ الحضاريّ من التراث وأهله، فيقول: "ولولا ما أودَعت لنا الأوائل في كتبها، وخلّدت من عظيم حكمتها، ودوّنت من أنواع سيَرها، حتي شاهدنا ما غاب عنّا، وأدركنا ما لم ندركه إلا بهم - لما حَسُنَ حظُّنا من الحكمة، ولضَعُفَ سبيلنا إلى المعرفة"..

فالكتاب قد حفظ لنا، ومازال، تراثاً عزيزاً عظيماً ما ينبغي أن نفرّط فيه، ونقطع الصلة به.

ومن ذا الذي يقول ما تقدَّم؟ المعدم الفقير الذي كان يرتاد حوانيتَ الورّاقين ليُشبع نهم فكره. ويُعوِّضَ من خُلوّ (جيبه)، ويقرأ على مصباح الشارعِ لذوبانَ شمعته وانطفاء ذُبالته..

ويُثني الشاعر الفارس المتنبي على قول شيخنا الجاحظ، فيقول:

أعزّ مكانٍ في الدُّنى سرجُ سابحٍ
وخير جليس في الأنام كتابُ

ورحمك الله، يا أبا الطيّب، فبحسبك ما ألمّ بك وما لاقيتَ في زمانك، فلا نزيد من آلامك وأشجانك..

ويذكّرنا قولُ أبي الطيب بقول شوقي:

أنا من بدّل بالكتب الصحابا
لم أجد لي صاحباً إلاّ الكتابا

الشكوى عامّة..

وإذ كنّا في ذكر أقوال الشعراء والكتّاب، أنقل رأياً للشاعر الفرنسي (بول فاليري) يأسى فيه لانصراف معظم الناس عن الكتاب فيقول: "إن أولئك المفكرين الذين يتذوقون جمال الشعر وروعة الأدب، يختفون شيئاً فشيئاً حتى غدوا قلّة محسوسة، وربّما شهدنا في المستقبل القريب انقراض القارئ المفكّر المتمهّل، ذلك أن السينما والسيارة والأخبار السريعة التي تلقيها الصحف كل ساعة قد شغَلت الأفكار، وأحدثت في الأذهان اضطراباً مروّعاً، وأودَت بقواعد النقد والكتابة السليمة".

ويذكرنا هذا بموقف صارخ للأديب الفرنسي (ديهامل) في كتابه (دفاع عن الأدب) وكان يخشى على الكتاب والقراءة في زمان السينما والإذاعة، فماذا لو عاش إلى زمان التلفاز ومتّع بصره وسمعه؟

القراءة.. والتخزين..

ويقودنا هذا إلى قول للروائي العالمي (همنغواي) الذي يرى في القراءة وسيلة (تخزين) لا بدّ للأديب أن يمتح منها ليمتلئ ويَفيض.. يقول: "إنني دائما أقرأ الكتاب وأنا دائماً في حالة (تخزين)".

وعلى ذكر التخزين والقراءة المتمهّلة، نذكر قولاً طريفاً للكاتب الساخر إبراهيم عبد القادر المازني، في مقدمة كتابه (حصاد الهشيم) أو (قبض الريح) لا أذكر.. فكلاهما كما يدّعي فراغ من فراغ - شبّه فيها نفسه (بعربة الرّش) تمتلئ بالقراءة لتفرّغ بالكتابة.. ولعل بعض من يتصدّون للكتابة ويحشرون أنفسهم حشراً بين الأدباء يَعُون هذا القول، ويقتنعون به أو يقنعون حسب لغة العصر.. والقناعة على كل حال خير بضاعة لمن يودّ أن يدخل السُّوق ويُحسن التسوّق..

صفحات مغرية..

ما دمنا في ذكر المازنيّ - والشيءُ بالشيء يُذكر - وأنقل ها هنا فقرة من قصة له عنوانها (ابتسم) يقول فيها إنه صادف مرة رجلاً في (الترام) وهو وسيلة ركوب عامّة عاجزة عن

تسميم الهواء والجواء، وكان الجالسُ أمامه يحمل في يده جريدة يتأمل في (صفحتها المصوَّرة).. ودار بينهما حديث، بعد التعارف، قال فيه جليسه:

"الحقيقة أن الفنّ الصحفي تقدّم جداً..

قال المازني، تنبّهت، وقلت: جدّاً.. صحيح.. وبادلتهُ ابتساما بابتسام..

فسعل وقال:

الإنسان معذور إذا شُغل بصفحة الصُّور، وما فيها من (المناظر الجميلة)..

فاستغربت كلمة (المناظر) وسألته:

(المناظر)؟..

قال: أعني صور الفتيات الجميلات.. ولكنني لا أشتري الجريدة لهذا وحدَه.. لا..لا.. أعوذ بالله.. أرجو ألا تكون جعلتَني مِن هذا الفريق الذي لا يعنيه من الصحف إلاّ صور النساء.. لا لا لا.. أؤكد لك أني أقرأ.. أقرأ.. أقرأ كل شيء..

قلت: طبعاً.. طبعاً.. ظاهر يا سيدي.. ظاهر.."

وأوضح أن وراء (ابتسامة) المازني هنا أسىً وحسرة، فهو ينعَى القراءة، وينعى على بعض الناس (سوء ظنّهم بالقراءة، ويختارون – إذا قرؤوا – ما يخلب لبّهمِ وأبصارهم، دون الصحف الجادة التي تعنى دائما بالأمور الجادّة، وتخصص أيضاً صفحات للثقافة والفكر..

ولكن أمثال هؤلاء يُحسنون تحريك أشداقهم ويدّعون أن الثقافة لا تطعم الخبز، ولا يقعون منها على كنز..

<u>*يقرؤون ليناموا..!*</u>

ومن طريف ما كُتب في موضوع القراءة ما يقوله الدكتور عبد الكريم عبد الصمد في مقال له عنوانه (نقرأ لننام):

"ومن يقرأ منّا يقرأ قبل النوم بضع صفحات.. كي ينام.. في حين أن الناس في بلاد الناس.. يقرؤون كي يستيقظوا، وكي يُسهموا في عملية الخلق والإبداع.. فهل من صحوة للقراءة..؟"

<u>*عامل تكوين ومعرفة..*</u>

والقراءة عامل من عوامل تكوين المرء وإنماء معرفته..

يقول الدكتور عبد الله أبو هيف: "القراءة لازمة لكل فرد، لا للباحث والأكاديمي فقط"..

ويقول: "تحاول اليومِ وسائل الاتصال الحديثة طرحَ الصورة بديلاً للكلمة.. كما أن النشر الالكتروني ألغى الورق والحدود.. وأرى أنه ينبغي أن تجد القراءة العون الضروري.."

ويرى المرحوم الأستاذ محمد القيسي "أنه لا خطورة على الكتاب الورقي من الكتاب الالكتروني" ويتحدث عن ظاهرة "..انتشار الثقافة الاستهلاكية السريعة، وكتب الطبخ والأبراج والخرافة.."

<u>*ضلال الطريق!*</u>

وللكاتب أحمد حسن الزيات، صاحب مجلة (الرسالة) المصرية التي صدرت سنة ١٩٣٢، والتي بُني على أنقاضها مجلة (الرسالة الجديدة) كلمة تحمل الكثير من الأسى لما أصاب الكتاب من غبن: "إن الجمهور القارئ في مصر وفي غير مصر، قليل، وأكثرُ هذا القليل لا يعرف طريق المكتبة، ولا يألف صحبة الكتاب.."

ولا يُخفي القاصّ الأستاذ حسن حميد تعلّقه بقراءة الكتب القديمة. وبالتراث الزاخر بكل ممتع ومفيد.

وقد يرى بعضهم أن قراءة هذا النوع من الكتب إنما هي (للتأسيس) ولجني الفائدة اللغوية فقط، وفي هذا الفهم لفائدة كتب التراث خطأ ينبغي التنبيه عليه، فقراءة القديم تواصُلٌ وسياحة أدبية وفكريّة مفيدة وممتعة. ولو كان المطلوب هو (الأساس) وحده، لقد يُغني عنه تقليبُ المعجمات والتهامُ ألفيّة ابن مالك..!!